دار الدراسات العلمية
للنشر والتوزيع

وقفـــات تصحيحية

في المسيرة الدعوية

بقلم
الدكتور. فخر الدين الزبير
كلية الدراسات القضائية والأنظمة
جامعة أم القرى

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

ففي لحظات من التوتر العاطفي الذي ينتاب قلوب كثير من الصادقين؛ لكثرة الخلافات بين الخاصة من دعاة المسلمين، تتطلع النفوس، وتشرئب الأعناق لسماع كلمات يجعل الله فيها شفاء لعليلهم، وإرواء لغليلهم، ولكن يخالط ذلك شيء من السآمة من كثرة القيل والقال، مع بقاء الحال على ذات الحال، فقد تشابكت حلقات الفتن، وتتابعت أصناف المحن، وامتلأت الساحات الدعوية بالأضغان والإحن، مما حتم على دعاة السنة أن تكون مشاركتهم علمية عملية، وقولية فعلية لترسو سفينة الدعوة على شاطئ الأمان وبر السلامة، وتحافظ على معالم العز والكرامة، في الوقت الذي تكالب فيه أعداء السنة واجتمعوا من أقطارها للتآمر عليهم، وتواصوا بالإطاحة بهم، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ وجمع الكلمة بالطبع يحتاج إلى جهد كبير، وزمن غير يسير، فتطفلاً على موائد الدعاة أردت تسطير هذه الكلمات ؛ اكتسابا للقربة إلى الله جل في علاه، وإجابة لطلب بعض الإخوة الفضلاء[1]، ورجائي من الله تعالى أن يجعلها سحابا من الخير تؤلف بين قلوب المؤمنين، وتمطر إيمانا، وتنبت أعمالا صالحة .

---

(١) وهي في الأصل محاضرة كنت ألقيتها قبل سنوات بجامع الصافية في بحري، ثم توسعت فيها بمحاضرة أخرى بجامع الفتح في الخرطوم، هذا مع عدم انتمائي لأي حزب من الأحزاب الدعوية، أو جماعة من الجماعات الإسلامية، وتعاوني مع جميع حملة السنة النبوية .

وهـي عبـارة عــن خـواطــر إيمانيــة، ونصائــح وعظيــة، وتأصيــلات تربويــة، خرجـت مـن خاطـر مكـدور، وقلـب مفطـور، يرجـو مـن مـولاه شـرح الصـدور، وإصـلاح الأمـور، ودفـع الشـرور، وجلـب الخيـور، وهـي مـع ذلـك نظـرات علميـة، وتقعيـدات شـرعية، وأصـول دعويـة، لا أظنهـا محـل خـلاف بيـن حملـة السـنة مـن حيـث التأصيـلات، ولكـن الخلـل يحصـل فـي التعامـل معهـا فـي خضـم التطبيقـات، فأذكرهـا كمـا تـواردت علـى خاطـري، دون تزويـر منطقـي، أو توشـيح تسلسـلي، ثـم أتابـع بعـدُ تحليلهـا علميـاً، والتدليـل عليهـا شـرعياً، واللـه أسـأل أن يجعـل لهـا الأثـر عنـد أولـي الأثـر، وكل مـن لـه نظـر، وهـي كمـا يلـي:ـ

١ – مسؤولية التغيير أمانة في أعناق الجميع.

٢ – الدعوة على قاعدة العلم والرحمة.

٣ – الزم غرز أهل العلم.

٤ – خص العلم قوماً دون قوم.

٥ – كن تابعاً ولا تكن متبوعاً.

٦ – لسانك إما غانم أو سالم أو غارم.

٧ – ما خرج لن يعود.

٨ – كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع.

٩ – إياك وردود الأفعال.

١٠ – ليس لك أن تأخذ موقفاً في كل فتنة.

١١ – المنهج بين الغلو والإجحاف.

١٢ الجرح والتعديل صراع بين الورع والهوى.

١٣ – الموازنة بين النظرة المثالية والواقعية الحالية.

١٤ – لسان الحال أبلغ من لسان المقال.

١٥ – كذلك كنتم من قبل.

١٦ – لا تلازم بين الرد والتحذير ولا الخلاف والافتراق.

١٧ – انتقاص القمم سبب لخساسة الهمم.

١٨ – قدم الأهم فالأهم.

١٩ – اشتغل بالمتفق عليه قبل المختلف فيه.

٢٠ – الخلاف في الجرح والتعديل ليس خلافا في المنهج .

٢١ –مصائد الأجوبة وأمانة السؤال .

٢٢ –ظاهرة الإرهاب الفكري .

٢٣ –آثار السلف بين الغلاة والجفاة .

٢٤ – قولك صواب يحتمل الخطأ.

٢٥ – الخلاف شر .

٢٦ – اتهم نفسك واعرف قدرك وتعاهد قلبك .

وهذا أوان الشروع في تفصيلها، ومن الله التوفيق والإعانة على الحق والإبانة .

فنبدأ بإذن الله تعالى في تعليق الخواطر والنظرات كإشارات تستوعب جُمَلاً من الإلماحات التي تغني عن كثير من العبارات، ليكون القراء من الألباء الذين تفيدهم الإشارة، وتغنيهم عن تكلف العبارة .

□□□

(١)

مسؤولية التغيير أمانة في أعناق الجميع

أول خطوة جادة لابد أن يخطوها الدعاة خاصة، والمسلمون عامة : أن يتأملوا في قاعدة ربانية في السنن والأسباب وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ .

فالخطوة الأولى أن تستشعر أن مسؤولية التغيير أمانة في أعناق الجميع فلا يغير الله حال أمة إلا إذا غير الأفراد حالهم ظاهراً وباطناً، ظاهراً بإصلاح الأفعال وإحسان الأقوال، وباطناً بتصحيح الاعتقادات وتقويم الإرادات ومعاهدة النيات، ولا تكفي مجرد الشعارات والتنظيرات، فالله تعالى ينظر إلى القلوب والأعمال : ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾.

ولابد من التنبه إلى أن من تغييرك، وإصلاحك لنفسك : حبَّ الخير لغيرك : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[1]، وقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾، وتمام الهداية أمركم بالخير وحرصكم على هداية غيركم فإن فعلتم ذلك، وبلغتم جهدكم فيما هنالك لم يضركم من ضل وخالفكم: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ﴾، وفي سنن أبي داود والترمذي أن أبا بكر رضي الله عنه قال : يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها، وإنّا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « إن الناس إذا رأوا

---

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) .

الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه ثم يدعونه فلا يستجاب لهم »[١].

إذاً فلا بد من أن تعاد الثقة بك باعتبارك فردا في أمة، مؤثرا فيها، ولبنة في مبانيها، ولا تقولن ما يفيد تغييري لنفسي " على المفهوم السابق " وإصلاحي لها أمام هذا الزخم الهائل من الفتن ؟!

فإن هذه المقالة شبهة شيطانية، وتلبيسة إبليسية تعيق مسيرة الإصلاح، وبداية السيل قطرة .

فأئمة الإصلاح من الأنبياء كانوا أفرادا، بل صاحب قصة الأخدود الذي غير قومه كان غلاما .

وتأمل في حال الصفوة المختارة الذين أصلح الله بهم مسيرة التاريخ كيف استشعروا هذه المسؤولية ففي اللحظة الأولى التي تلمسوا فيها الداء : سعوا حثيثاً في سبيل تحصيل الدواء :

فهذا أبو ذر رضي الله عنه في اللحظة التي تغيرت نفسه، فانشرح فيها صدره للإيمان، وأضاء قلبه بالتوحيد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين ظهرانيهم)[٢]، فهذا تمام الهداية .

وهذا الطفيل بن عمرو الدوسي في اللحظة التي ذاق فيها طعم الإيمان، وتغلغل في سويداء فؤاده : ذهب إلى قومه بشيراً ونذيراً متحققاً بحقيقة التغيير فعصت دَوْسٌ وأبت، فقال : يا رسول الله إن دوساً هلكت عصت وأبت فادع الله عليهم، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال :(اللهم اهد دوساً وائت بهم)[٣]، فأتى الله بهم فكان الطفيل سبباً لتغييرهم .

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٧) . ورواه الترمذي في سننه (٤/ ٣٢٢) أبواب تفسير القرآن، حديث رقم (٥٠٥٠)، وقال: حديث حسن صحيح .

(٢) رواه البخاري (٧/ ٢١٩ – ٢٢٠/ ٣٨٦١) ومسلم (٤/ ١٩٢٣ – ١٩٢٥/ ٢٤٧٤ [١٣٣]) .

(٣) أخرجه الدارمي (١٥)، والطبراني في الصغير (٢٦٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩١)، وقال: " صحيح على شرطهما "، وصححه الألباني في الصحيحة " رقم ٤٩٠ " .

بـل تأمـل فيمـا هـو أعجـب مـن ذلـك هدهـد سـليمان الـذي شـعر بالـداء وكان سـبباً فـي توصيـل الـدواء وحصـول الشـفاء فقـال مقالـة المسـؤولية " مع وجـود تلـك المملكـة الضخمـة مـن الجـن والإنـس والطيـر :

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ .

كلمـات تشـع توحيـدا ونـورا وحرصـا علـى الهدايـة، ثـم أخـذ كتـاب التوحيـد فألقـاه إليهـم، فـكان مـع ضعفـه سـبباً رئيسـاً فـي تغييرهـم، ومـا أحسـن قـول أبـي الطيـب[1] :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر
وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر
وأشجع مني كل يوم سلامتـــي
وما ثبتت إلا وفي نفسهـــا أمـــر
تمرست بالآفـات حتى تركتهـا
تقول أمـات الموت أم ذعر الذعـر

فهـذه هـي خطـوة الإصـلاح الأولـى متـى رآهـا اللـه فينـا أعاننـا عليهـا، أمـا مـع غيـر ذلـك فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، ولكـن علـى أي شـيء تبنـى قاعـدة التغييـر ؟

هذا ما يجاب عنه في الخاطرة الثانية وهي ...

(١) ينظر : شرح ديوان المتنبي للواحدي ص ١٤٣ .

(٢)
الدعوة على قاعدة العلم والرحمة

هاتان هما الركيزتان اللتان لابد أن تبنى عليهما مسيرة الدعوة فلا ترفع الدعوة رأساً، ولا تضع أسّاً، ولا ترد بأساً : إلا بالعلم : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ .

فبالعلم تقدر المصالح والمفاسد، وبه يفرق بين الوسائل والمقاصد، فلا يختلط الحابل بالنابل، وضده بضده فبالجهل يشتبه الحق بالباطل، ويلتبس المليء بالعاطل، وهذه من أعظم الآفات في مسيرة الدعاة، فأعظم ما يكدر صفو الدعوة التباس الباطل بلبوس الحق، وتزيي الكذب بزي الصدق، ولا ينجلي ذلك إلا بالعلم : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾، فعلى قراءة رفع ﴿ سَبِيْلُ ﴾ يكون نفس تفصيل الآيات فيه استبانة لسبيل المجرمين، وعلى قراءة النصب يكون تفصيل الآيات، وفهم الحجج والبينات، وسيلة تهديك إلى استبانة سبيل المجرمين، وكلاهما مؤد إلى المراد : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾، فدرعك علمك، وسلاحك معرفتك، بعد استعانتك بربك، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

أما زماننا هذا فقد عظمت فيه أهمية العلم أكثر من سابقه من الأزمنة فغدا ضرورة واقعية، مع كونه فريضة شرعية، وحاجة فطرية، فتجسدت المسؤولية على الجميع لتحصيلة، ومن هذه العوامل :

أولا : كثرة الفتن التي لا مخرج منها بعد توفيق الله تعالى إلا بالعلم .

ثانيا : اضطراب الآراء، حتى غدت خليطا غير متجانس لا تمحيص لها إلا بالعلم .

ثالثا : ظهور القلم وانتشار الزخم الهائل من المعلومات التي تحتاج إلى علم يميز بين غثها وسمينها .

رابعا : تسارع الشبهات والشهوات التي تحتاج إلى عوامل للثبات يكون العلم أحد أهم مقوماتها .

وحينما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بظهور الفتن قرن ذلك برفع العلم، فقال صلى الله عليه وسلم : (يتقارب الزمان، ويقبض العلم، وتظهر الفتن، ويلقي الشح، ويكثر الهرج) [1].

وأما الرحمة فهي حقيقة النبوة : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾، ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ﴾ حقيقة الرحمة الحرص على هداية الخلق، والشفقة عليهم مع دوام الرفق : (فما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه)[2].

فحقيقة الدعوة ألا تتكلم إلا برحمة، ولا تفعل إلا برحمة ؛ حرصاً على الخير للبعيد والصديق، واختياراً لأهدى سبيل وأقوم طريق .

فإن لم يكن سبيل إلا الشدة بصورها فذاك بقدر، وهو خلاف الأصل المقرر، ولا تكون إلا في القليل النزر .

فقسا ليزدجروا ومن يك راحماً فليقسُ أحياناً على من يرحمُ

ومن أكبر الأخطاء التي قلبت بها المفاهيم الفطرية جعل الشدة والغلظة هي الأصل مع المخطئين تلمسا من بعض النصوص والآثار، مع تظاهر الأدلة على خلاف ذلك .

وهنا ينبغي التأكيد على جملة من التقعيدات في توجيه ما ورد من تشديد في بعض الآيات، والأحاديث النبويات، والآثار السلفيات، وأنها لا تنافي الرحمة، ومقتضى الحكمة في محالها، وهي كما يلي :

١-قد يغلظ في الإنكار على المقربين من الأنبياء والصالحين، ممن

---

(١) رواه مسلم (١٥٧)، وأصله في الصحيحين .

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

تجرد لقبول الحق والانقياد إليه، والإذعان بين يديه، وقد أنزل الله تعالى سورة " عَبَسَ " في عتاب صفوته من خلقه صلى الله عليه وسلم، وقال الله سبحانه له : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ . وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ . وأنزل في أول أنبيائه آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، كما قال تعالى لأول رسله نوح: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، وقال الله تعالى لخيار المهاجرين والأنصار : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقال تعالى في أزواج النبي – صلى الله عليه وسلم– : ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾، وكما قيل :

وكبائر الرجل الصغير صغائر   وصغائر الرجل الكبير كبائر

وقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في أبي ذر رضي الله عنه: (مَا أَظَلَّتْ الْخَضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتْ الْغَبْرَاءُ مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ)[١]، وعاتبه مرة وقال لّه: (إنّك إمرؤٌ فيك جاهلية) !![٢]

وقال لمعاذ : (يا معاذ ! والله إني لأحبك)[٣]، وأنكر عليه مرّة فقال له صلى الله عليه وسلم : (أفتان أنت يا معاذ !!) [٤] .

وعايش سلفنا الصّالح هذا المنهج وطبقوه في حياتهم كما سيأتي في مثاني هذه الخواطر .

فالمحب والقريب كالوالد لأولاده من أصلابه، والشيخ لطلابه، والخل

(١) رواه الترمذي (٥/ ٦٢٨ – ٦٢٩/ ٣٨٠٢) وقال: "هذا حديث حسن غريب". والحاكم (٣/ ٣٤٢) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في تخريج السنن .
(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣٠) و (٢٥٤٥) و (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١) .
(٣) رواه أبو داود وهو في صحيح الترغيب (١٥٩٦) .
(٤) رواه البخاري (٧٠١) و (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥) .

لخليله وأحبابه، يقبل ما لا يقبل من البعيد، وهذا سر دقيق ؛ فإن الأصل العام هو الرفق، وإنما ترد الشدة على محلها، وهذا مقتضى الحكمة ؛ لأن المقصود التحصيلي هو الإصلاح والهداية .

وقد كان لشيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم تأصيلات عظيمة، وتوضيحات مهمة سديدة..

فمن ذلك قول شيخ الإسلام - يرحمه الله - : (وتعلمون أيضاً أنّ ما يجري من نوع تغليظ أو تخشين على بعض الأصحاب والإخوان ... فليس ذلك غضاضةً ولا نقصاً في حق صاحبه، ولا حصل بسبب ذلك تغير منا ولا بغض، بل هو بعد ما عومل به من التغليظ والتخشين، أرفع قدراً وأنبه ذكراً وأحب وأعظم.. وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين التي يصلح الله بها بعضهم ببعض، فإنّ المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقلع الوسخ إلاّ بنوع من الخشونة، لكن ذلك يُوجب من النظافة والنعومة ما نحمد معه ذلك التخشين) [١].

٢-أن بعضها وقائع أعيان قيلت فيمن يستحق ذلك لأوصاف قامت به فلا ينبغي تعميمها إلا حيث تحقق مناطها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (وكثير من أجوبة الإمام أحمد وغيره من الأئمة خرج على سؤال سائل قد علم المسئول حاله، أو خرج خطابا لمعين قد علم حاله، فيكون بمنزلة قضايا الأعيان الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يثبت حكمها في نظيرها). [٢]

٣- أن أكثر هذه المواقف كان المقصود منها الزجر والتغليظ والتنفير من الفعل، كما هو الشأن مع الأخطاء العظام كأهل البدع والفسق والشاذ من الأحكام، وهذا أيضا إنما يحتج به حيث تحققت المصلحة من إنكار الباطل والتنفير منه، ونشر الحق والترغيب فيه، وإلا متى ترتبت مفسدة أعظم رجع

(١) مجموع الفتاوى : (٢٨/ ٥٣) .

(٢) الفتاوى : (٢٨/ ٢١٣) .

إلى الأصل وهو الرفق، كما وقع الرفق من النبي صلى الله عليه وسلم مع المنافقين بل مع رؤوسهم، وهم لا شك أشد خطرا من أهل البدع لا سيما غير المكفرة .

٤- أن بعض هذه الشدّة التي صدرت مع الأئمة خرجت مخرج كلام القرين في قرينه! وهذا مما يطوى ولا يروى، قال الذهبي : (فلسنا ندعي في أئمة الجرح والتعديل العصمة من الغلط النادر، ولا من الكلام بنفس حاد فيمن بينهم وبينه شحناء وإحنة، وقد علم أن كثيراً من كلام الأقران بعضهم في بعض مهدر لا عبرة به، ولا سيما إذا وثّق الرجلَ جماعةٌ يلوح على قولهم الإنصاف)[1].

وقال في ترجمة أبي نُعيم- وما كان بينه وبين ابن منده : (وكلام ابن مندة في أبي نعيم فظيع، لا أحب حكايته، ولا أقبل قول كل منهما في الآخر، بل هما عندي مقبولان، لا أعلم لهما ذنباً أكثر من روايتهما الموضوعات ساكتين عنها..كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، ما ينجو منه إلاّ من عصم الله، وما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك، سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس، اللهم فلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)[2].

٥-أن بعض هذه المواقف كان داعيه الغضب الشديد جراء إساءة بعضهم لبعض سواء كانوا طلبة أو شيوخاً-، فقد عقد الخطيب فصلاً قال فيه : من أضجره أصحاب الحديث فأطلق لسانه بذمّهم ! ثم نقل عن شعبة أنّه قال لأصحاب الحديث : (قوموا عني، مجالسة اليهود والنصارى أحب إلي من مجالستكم، إنكم لتصدون عن ذكر الله وعن الصلاة!) . قال سويد: (كان الفضيل بن عياض إذا رأى أصحاب الحديث قد أقبلوا

(١) السير : (٧/ ٤٠-٤١) .

(٢) ميزان الاعتدال : (١/ ١١١) .

نحوه وضع يديه في صدره وحرك يديه، وقال : أعوذ بالله منكم) .
قال سلمة بن شبيب : (رأيت عبد الرزاق وهو بمكة فقلت له: كيف أصبحت ؟ قال : بشر ما رأيت وجهك، فإنك مبرم !) .
فقول شعبة هذا، وما جاء بعده من أقوال أئمة الحديث، إنّما قالوها في حالة الغضب الشديد، بسبب إساءة الطلبة إساءة بالغة، وهي حالات نادرة تعرض لهم، ولكل إنسان إلاّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام...)[١].

٦- أنّ السلف بشر كالبشر فقد تصدر منهم الهفوات التي لا تنفك عن سائر البشر، وما سبق يصلح أمثلة هنا، ومن ذلك أيضا ما ذكره الفسوي، عن يحيى بن معين أنّه قال : (من فضل عبد الرحمن – يعني ابن مهدي – على وكيع فعليه اللعنة !) .

قال الذهبي معلقاً..(: كان غير هذا أشبه بكلام أهل العلم !!، ومن حاسب نفسه، لم يقل مثل هذا !!، وكيع خير فاضل حافظ)[٢] .

والأمثلة على كل ما سبق كثيرة، نمسك عن سردها صيانة لجناب السلف، من تطاول جاهل، أو خوض مغرض بالباطل، وهو مما لا يخفى على كل مؤمن عاقل .

فالأصل في كل شيء هو الرفق واللين الذي أمر به خير الأنبياء والمرسلين، كما قال له رب العالمين : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾، فإذا كانت الغلظة والفظاظة سببا لانفضاض الناس من حول خير الناس فكيف بم دونه .

بل تأمل في قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ فإذا كان القول اللين مطلوبا مع رجل من أكفر الخلق، فكيف بمن دونه بخاصة ممن يتلمس طريق الحق، لذلك قال

(١) ينظر : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع : (١/ ٢١٦) .
(٢) سير أعلام النبلاء : (٩/ ١٥٣) .

ابن القيم رحمه الله واصفا شيخ الإسلام بهذا الأصل-: (وما رأيت أحدًا قطُّ أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه ...، وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: (وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه! وما رأيته يدعو على أحدٍ منهم قطُّ، وكان يدعو لهم) . قال: (وجئت يومًا مبشّرًا له بموتِ أكبر أعدائه، وأشدّهم عداوةً وأذىً له، فنهرني، وتنكّر لي واسترجع. ثم قام من فوره إلى أهل بيته - أي ذلك الخصم الذي مات - فعزّاهم، وقال: (أنا لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه) ... فسُّروا به ودعوا له، وعظّموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه) (١).

وقال ابن القيم: (الثاني : ملاطفة الخلق. وهي معاملتهم بما يحب أن يعاملوه به من اللطف. ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة. فإن ذلك ينفرهم عنه. ويغريهم به. ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته، فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف. فإن معاملة الناس بذلك: إما أجنبي. فتكسب مودته ومحبته، وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته. وإما عدو ومبغض. فتطفئ بلطفك جمرته. وتستكفي شره. ويكون احتمالك لمضض لطفك به دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به) (٢).

فالمؤمنون بحق هم المتراحمون فيما بينهم (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)، (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) (٣).

فلا تعيير ولا تحذير، ولا تحقير بأدنى تقصير ؛ فالأصل فيمن عدت

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم : (٢/ ٣٢٨- ٣٢٩) .

(٢) مدارج السالكين : (٢/ ٤٧٨) .

(٣) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) .

سقطاته أن : (لا تعينوا عليه الشيطان) [١]، بل يرحم وتقال عثرته عملا بوصية النبي صلى الله عليه وسلم : « أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود »[٢].

ونماذج ذلك في زمن النبوة كثيرة :

فهذا حاطب ينقل الأخبار للمشركين، وهو فعل يعد من الخيانة العظمى .

وذاك خالد يقتل بني جذيمة تأولا بعد أن أسلموا، وقتل النفس المعصومة من أكبر الكبائر .

ومثله فعل أسامة رضي الله عنهم أجمعين ....

والواقع الدعوي شهد افتقاراً عظيماً لهذه الخصلة التي هي من أوليات خصال النبوة : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾، والرحماء يرحمهم الله، وقد علمت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (العلماء ورثة الأنبياء) [٣]، فهم ورثتهم في العلم والرحمة، فمن أعظم صفات الله تعالى، وأكثر ما يكرر بعد لفظ الجلالة اسما الرحمن الرحيم .

فإذا تصورت ما سبق وضممته لهذا الحديث تبين لك بجلاء التلازم بين العلم والرحمة فهما كجناحين يحلق بهما داعية الخير لذلك جمع الله بينهما في موضعين من كتابه في سورة الكهف : ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ فبدأ بالرحمة لأنها الوعاء الذي يصب فيه العلم، وفي سورة غافر: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ . وبهما تعالج أعظم الأمراض الإنسانية وهي الجهل والظلم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، فالرحمة تدفع الظلم، والعلم يدفع الجهل .

---

(١) رواه البخاري (٦٧٧٧) .

(٢) رواه أبوداود، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨٢٧) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في "المسند" (٥/ ١٩٦)، والدارمي في "سننه" (١/ ٩٨)، وأبو داود (٣٦٣٦)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) .

فامتن الله على رسوله بالعلم والرحمة وامتن على نبيه الخضر بهما، وتوسلت حملة العرش بصفتي الرحمة والعلم في الدعاء للمؤمنين بالمغفرة والهداية والجنة .

وهذه هي مطالب الداعية التي يرجوها لنفسه وإخوانه، فالعلم والرحمة ميراث النبوة، وهما زاد الداعي إلى الله، فكن على ذكر من هذه الكلمات التي جال بها الخاطر فقيدها القلم في هذه الأوراق من الدفاتر . .

والله الموفق

(٣)
الزم غرز أهل العلم

إن لـزوم العلمـاء الربانييـن هـو طـوق النجـاة، وصِمَـام الأمـان، وهـذا ممـا لا ينبغـي النـزاع فيـه، فكلنـا يحفـظ النصـوص فـي ذلـك، ومنهـا قولـه تعالـى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾، ومـن معانـي أولـي الأمـر مـا قـال ابـن عبـاس كمـا عنـد الحاكـم : (يعنـي أهـل الفقـه والديـن وأهـل طاعـة اللـه الذيـن يعلمـون النـاس معانـي دينهـم ويأمرونهـم بالمعـروف وينهونهـم عـن المنكـر فأوجـب اللـه سـبحانه طاعتهـم علـى العبـاد)[١]، وقـال تعالـى : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾.

وقـال صلى اللـه عليـه وسـلم: « إن اللـه لا ينـزع العلـم عنكـم بعـد مـا أعطاكمـوه انتزاعـاً، ولكـن يقبـض العلمـاء بعلمهـم، ويبقـى جهـال فيسـألون فيفتـون فيضلـون ويضلـون»[٢]، ولـه لفـظ آخـر مشـهور فـي الصحيحيـن .

فتأمـل فـي قولـه (فيضلـون ويضلـون) : يظهـر لـك جليـاً أن أول أبـواب الضـلال غيـاب العلـم، وذهـاب قاعـدة الحـل والعقـد، فـإن الحكـم فـي المسـائل – وخاصـة مـا يتعلـق بالنـوازل، أو الفتـن والقلاقـل– يحتـاج إلـى حصيلـة وافـرة مـن علـوم النصـوص، وتضلـع فـي القواعـد، ونظـر شـرعي فـي المقاصـد، وقبـل ذلـك ديانـة صادقـة، وبعـده معرفـة بالواقـع فاحصـة .

(١) مستدرك الحاكم (٤٢٣) .

(٢) رواه البخاري (٧٣٠٧) بهذا اللفظ، وأصله في الصحيحين .

فبالعلم والإيمان تتخطى الأمة المصائب، وتحقق المطالب، وتمخر عباب المحن، وتشق دياجير الفتن، لذلك جمع الله بينهما في القرآن فقال تعالى : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ وقال سبحانه : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، فبالعلم يرفع الجهل، وبالإيمان يدفع الظلم، والجهل والظلم منبع كل شر كما سبق، فهما من أعظم عوائق الطريق ومتى تلبس بأحدهما الإنسان حاد عن الهدى إلى الزيغ والردى : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ .

فإن تفردت برأيك في مواطن تحتاج فيها إلى غيرك ممن هم أعلم منك :

كنت ظالماً بافتياتك على وصية الله تعالى : ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ .

وكنت جاهلاً لعدم معرفتك بما يصلح أمرك فأهل كل شأن ترفع إليهم أمورهم، ثم من كان عنده نوع نظر استعان برأيهم على ما يظنه موافقاً للحق، ومن لم يكن له نظر تبعهم فيما رأوا وكان معذوراً عند الله سبحانه باتباعه لأمره تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

وتأمل في قصة صلح الحديبية وكيف أن كثيرا من الشروط كانت مخالفة لنظر جلة من الصحابة، ومع ذلك سلموا بها مع شدة ذلك على نفوسهم حتى نزل ما يسلّي حزنهم، ويكشف همهم، وهو قوله سبحانه : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، تدلك هذه القصة وغيرها كثير على أن أهل العلم قد يعلمون من عواقب الأحكام ما يعجز عن إدراكها غيرهم ؛ فلذلك لا بد من إعادة الحصانة الشرعية لعلماء الأمة ؛ فإنه السبيل إلى كشف الغمة، وفيما قيل كفاية ؛ فإن هذا الأصل من المسلمات عند أهل الدراية .

ومع ذلك لا بد من التنبيه على أنه لا معصوم فيما يبلغ عن الله تعالى إلا أنبياؤه، فكل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسوله صلى الله عليه وسلم، وهنا يقع كثيرون في غلو التقديس للعلماء، وهو طرف نقيض من الانتقاص والازدراء،

وهـذا إرث قديـم مـن بقايـا التعصـب والتقليـد، وإن تبيـن لهـم الوحـي المبيـن، كمـا قـال ابـن القيـم : (معرفـة فضـل أئمـة الإسـلام، ومقاديرهـم وحقوقهـم ومراتبهـم، وأن فضلهـم وعلمهـم ونصحهـم للـه ورسـوله : لا يوجـب قبـول كل مـا قالـوه، ومـا وقـع فـي فتاويهـم مـن المسـائل التـي خفـي عليهـم فيهـا مـا جـاء بـه الرسـول، فقالـوا بمبلـغ علمهـم والحـق فـي خلافهـا لا يوجـب إطـراح أقوالهـم جملـة وتنقصهـم والوقيعـة فيهـم؛ فهـذان طرفـان جائـران عـن القصـد، وقصـد السـبيل بينهمـا، فـلا نؤثـم ولا نعصـم)[1].

وقال في النونية :

جعلوا كلام شيوخهم نصا له الإ   حكام موزونا به النصان
وكـلام باريهم وقول رسولهـم   متشابها متحملا لمعـان

قـال شـيخ الإسـلام : (وليـس لأحـد أن ينصـب للأمـة شـخصا يدعـو إلـى طريقته ويوالـي ويعـادي عليهـا غيـر النبـي صلـى اللـه عليـه وسـلم ولا ينصـب لهـم كلامـا يوالـي عليـه ويعـادي غيـر كلام اللـه ورسـوله ومـا اجتمعـت عليـه الأمـة، بـل هـذا مـن فعـل أهـل البـدع، الذيـن ينصبـون لهـم شـخصا أو كلامـا يفرقـون بـه بيـن الأمـة، يوالـون بـه علـى ذلـك الـكلام أو تلـك النسـبة ويعـادون)[2] .

***

(١) إعلام الموقعين : (٣/ ٢٢٠) .
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٦٤) .

(٤)
خص العلم قوما دون قوم

هـذه قاعـدة أثريـة مستمدة مـن النصـوص النبويـة، فقـد بـوّب لهـا إمـام أهـل الأثـر الإمـام البخـاري رحمـه الله تعالـى فـي صحيحـه فقـال : [بـاب مـن خـص العلـم قومـاً دون قـوم كراهيـة أن لا يفهمـوا]، ثـم أورد فيـه حديـث معـاذ رضـي الله عنـه وفيـه قولـه صلـى الله عليـه وسـلم : « مـا مـن أحـد يشـهد ألا إلـه إلا الله وأن محمـداً رسـول الله صدقـاً مـن قلبـه إلا حرمـه الله علـى النـار»، قـال معـاذ : يـا رسـول الله أفـلا أخبـر بـه النـاس فيستبشـروا، فقـال: « لا إنـي أخـاف أن يتكلـوا » .[1]

وقريـب مـن هـذا حديـث مسـلم أن عمـر رضـي الله عنـه قـال للنبـي صلـى الله عليـه وسـلم: (إنـي أخشـى أن يتـكل النـاس فخلهـم يعملـون، فقـال صلـى الله عليـه وسـلم: ﴿ فخلهـم﴾)[2]، وهـذا يـدل علـى أن العلـم التفصيلـي لا يلـزم جميـع النـاس وبخاصـة إذا خشـي منـه ترتـب مفسـدة مـن إسـاءة فهـم، أو سـوء قصـد، وإنمـا يلـزم العامـة العلـم الإجمالـي الـذي يصحـح إيمانهـم ويقـوم تعبداتهـم، إلا أن يفصـل لهـم علـى وجـه تأصيلـي بـأن يبـدأ معهـم بصغـار العلـم قبـل كبـاره، كمـا قـال تعالـى : ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾، والربانـي : هـو الـذي يربـي النـاس بصغـار العلـم قبـل كبـاره[3]. وقـد تتابعـت آثـار السـلف الكـرام فـي تأصيـل هـذه القاعـدة، فمـن ذلـك قـول علـي

(١) رواه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٠) .

(٢) رواه مسلم (٥٢) .

(٣) ينظر تفسير البغوي : (١/ ٤٦٣) .

رضي الله عنه في البخاري : (حدِّثوا الناس بما يعرفون – وفي زيادة ودعوا ما ينكرون – أتحبون أن يكذب الله ورسوله) [١]، ومنها قول ابن مسعود رضي الله عنه في مقدمة مسلم : (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)[٢] فتأمل !!

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : (وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة)[٣] .

بل تدبر الموقف العظيم الذي وقفه الصحابة في أمر الخلافة ففي البخاري عن ابن عباس، قال: (كنت أقرئ رجالا من المهاجرين، منهم عبد الرحمن بن عوف، فبينما أنا في منزله بمنى، وهو عند عمر بن الخطاب، في آخر حجة حجها، إذ رجع إلي عبد الرحمن فقال: لو رأيت رجلا أتى أمير المؤمنين اليوم، فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في فلان؟ يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلانا، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت، فغضب عمر، ثم قال: إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس، فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم. قال عبد الرحمن: فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة، فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت متمكنا، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعونها على مواضعها. فقال عمر: أما والله – إن شاء الله – لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة)[٤].

---

(١) صحيح البخاري (١٢٧) .

(٢) صحيح مسلم (١/ ١١) .

(٣) فتح الباري : (١/ ٢٢٥) .

(٤) صحيح البخاري (٦٨٣٠) .

فتأمل في هذه الجمل التي تقطر حكمة، وأخلصها بما نقول قول عبدالرحمن رضي الله عنه : (وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة، فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت متمكنا، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعونها على مواضعها) .

وقد يلحق بذلك ما ذكره الذهبي عن الإمام مالك رحمه الله تعالى من كراهة تحديث العامة ببعض أحاديث الصفات[١]، ولكن هذه العبارة ليست على إطلاقها بل هي محمولة على دقائق الصفات مع خشية الاشتباه دون تمهيد عقدي أو تأصيل شرعي، وأما إذا ذكر ذلك مقرراً بالقواعد ومزيلاً للاشتباه فلا بأس، بل هو من العلم النافع الذي يجب نشره وتعليمه .

ومن هذا القبيل ما ذكره الحافظ رحمه الله من كراهة الإمام أحمد رحمه الله للتحديث بالأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، وهذا أيضاً يحتمل حيث لم يوضح مرادها .

وقال الحافظ رحمه الله: (وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأنه اتخذها وسيلة لما كان يعتمد من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب)[٢].

فإذا تأملت هذه النصوص والآثار وكنت منها على ذكر وادكار، فطوف معي خاطرك على واقعك الدعوي الذي يشهد خللاً في هذا المسلك الحكيم، فلم يعد هناك علم يختص به أهل العلم وطلابه بل اشتركت جميع المستويات في دقائق المسائل التي تحيرت لها ألباب الأفاضل .

وأعظم من ذلك أن تأخذ فتن الخاصة حيزاً واسعاً في الأوساط

---

(١) سير أعلام النبلاء : (٨/ ١٠٣-١٠٤) .

(٢) فتح الباري : (١/ ٢٢٥) .

العامة، بحيث تفتح مجالاً للتفكه والاستهزاء، وقبل ذلك النفور والازدراء، والتشكيك في عامة الصلحاء، وكل هذه المظاهر من أعظم العوائق في مسيرة الإصلاح؛ فإن صيانة جناب الشريعة وحفظ رونقها العام، ودرء المفاسد المتعلقة بحكمها ومقاصدها أولى من جلب مصلحة خاصة كرد جاهل حائر، أوتهدئة متحمس ثائر، فهذه مصالح يمكن تحقيقها في مجالس مغلقة، أو مجالات ضيقة، بأقل الخسائر لا أن تنشر أمام العامة مع ما فيها من مجازفات، ومهاترات وإساءات، وإشاعات، كلها تضعف الصف الدعوي، وتجر الوقيعة من أهل التربص والريبة ممن يصطاد في المياه العكرة، وهذا في حد ذاته - مع ما فيه من مفاسد - مذموم في ميزان الشرع : (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) [١]، (إن أبغض الرجال عند الله الألد الخصم) [٢]، (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا)[٣] قال الصنعاني : (وحقيقة المراء طعنك في كلام غيرك لإظهار خلل فيه لغير غرض سوى تحقير قائله، وإظهار مزيتك عليه)[٤] .

ومن مأثورات أسلافنا ألا تجعل دينك عرضة للخصومات .

وقال الإمام مالك رحمه الله كما في السير : (ليس هذا الجدل من الدين بشيء)[٥] .

وشرح هذه العبارات يطول ...

---

(١) والحديث أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٢ و٢٥٦)، والترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٨)، والروياني في «مسنده» (٢/ ٢٧٤)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٦٢٩)، والعقيلي (١/ ٢٨٦)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٧٧)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (١/ ٧٣)، والحاكم (٢/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨) من طرق عن الحجاج بن دينار، عن أبي غالب، عن أبي أمامة، به.

(٢) رواه البخاري كتاب المظالم (٢٤٥٧) والتفسير (٤٥٢٣) والأحكام (٧١٨٨) .

(٣) أخرجه أبو داود (٢/ ٦٦٨) كتاب «الأدب» باب في حسن الخلق، حديث (٤٨٠٠) من حديث أبي أمامة مرفوعا.

(٤) سبل السلام : (٤/ ١٩٦) .

(٥) سير أعلام النبلاء : (٨/ ٦٧) .

والمقصود أنه إذا ثبت المنع من تحديث بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم درءً للفتنة مع كونها حقاً محضاً لا باطل يعتريها، ولا حق ينافيها، فالشأن مع أقاويل بقية البشر أولى بالمنع من النشر، عند حصول الضرر، أو ترتب ما لا يحمد من الأثر، قال شيخ الإسلام : (فموارد النزاع إذا كان في إظهارها فساد عام ؛ عُوقِبَ مَن يُظهِرها، كما يُعاقَب من يشرب النبيذ متأولاً، وكما يُعاقَب البغاةُ المتأولون)[١].

وقال الذهبي : (ومن هذا يعلم أنه ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره، وإن كان من علم الشريعة ومما يفيد علماً بالأحكام، بل ذلك ينقسم : فمنه ما هو مطلوب النشر، وهو غالب علم الشريعة، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أو لا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص)[٢] .

بل لو تأملت فيما هو أعظم من ذلك لعلمت ما وصل إليه بعض الدعاة من بعد عن النهج النبوي السوي ؛ فالنبي صلى الله عيه وسلم يقول : « اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا»[٣]، فإذا كان هذا مع القرآن، فكيف بأقاويل فلان وفلان ؟!

وقال النخعي في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ : قال: الجدال والخصومات في الدين[٤] .

فإذا ابتليت الدعوة بفتنة – وهذا أمر قدري – فما المانع من علاجها بين الخاصة، والتعاون في ذلك على قاعدة العلم والرحمة –كما سبق – دون إشاعتها – من أولها مع عُجَرها وبُجَرها – على مائدة الحوار، ووسائل الاتصال، ونافذة إطلالتها العالم أجمع – يخوض فيها من شاء بما شاء، وتتخللها الأهواء،

(١) جامع المسائل لابن تيمية : (٥/ ٢٧٩) .
(٢) الموافقات : (٥/ ١٦٧) .
(٣) رواه البخاري (٥٠٦٠)، ومسلم (٢٦٦٧) من حديث جندب بن عبد الله البجلي .
(٤) أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (٧٢٢)، وابن جرير (١٠/ ١٣٧ رقم ١١٥٩٩) وابن بطة (٢/ ٥٠٠ رقم ٥٥٨)، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم" (٢/ ١١٤)، بإسناد صحيح.

وتضطرب فيها الآراء، ويتعالم فيها الجهلاء، ويتسلل إليها لواذاً الدخلاء، فيكبر الخلاف، ويتسع الخرق على الراقع، وتبعد الشقة بين الحق وأهله، وكما قيل : إذا سكت الجاهل قلَّ الخلاف، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي من استشرفها تستشرفه » وفي لفظ لمسلم : « والنائم فيها خير من اليقظان»(١)، مبالغة منه صلى الله عليه وسلم في تضييق الخناق على الفتن، والحد من اتساعها .

وحتى باب النصيحة فينبغي عدم التباسه بالفضيحة، وعدم الإشهار إلا بضوابط وأصول الإنكار، والذي هو في الأصل من وجوه الاضطرار، قال ابن رجب : (وكان السلف يكرهون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على هذا الوجه، ويحبون أن يكون سراً فيما بين الآمر والمأمور ؛ فإن هذا من علامات النصح ؛ فإن الناصح ليس له غرض في إشاعة عيوب من ينصح له، وإنما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها. وأما إشاعة وإظهار العيوب فهو مما حرمه الله ورسوله قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩] والأحاديث في فضل الستر كثيرةٌ جداً) (٢).

وقال الشافعي (٣): (من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه)، ومن شعره المشهور(٤) :

تعمدني بنصحك في انفرادي وجنبني النصيحة في الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٨٦) .
(٢) الفرق بين النصيحة والتعيير ص ١٧ .
(٣) الآداب الشرعية : (١/ ٢٧٨) .
(٤) ديوان الشافعي ص ٥٦ .

وإن خالفتني وعصيت قولي   فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

ولكل ما سبق أذكر نفسي أولاً وإخواني بتقوى الله تعالى في السر والعلن، وأن تكون جميع ساحاتهم ساحات خير وتبشير، وأن ينأوا بأنفسهم عن طرائق التنفير، كما هي وصية رسولنا البشير النذير : « يسرا ولا تعسرا، بشرا ولا تنفرا، تطاوعا ولا تختلفا »[1]، ولا مزيد على هذا الحديث، والله أعلم.

***

(١) رواه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) .

(٥)
كن تابعا لا متبوعا

الأصل في المؤمن أنه تابع لمن سبقه بإحسان من أهل العلم والإيمان، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ وقال : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ والثانية أخص من الأولى لكنها مؤدية للمراد .

ففي هذا الزمان الذي اختلط فيه الحابل بالنابل، والحق بالباطل، والمليء بالعاطل :

لأن تكون تابعا أحوط من أن تكون متبوعا، ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

فخير لك أن تكون تابعا في السكوت فتلزم الصمت إلى أن ينطق من هو أعلم منك، وبذلك يتخلص المجتمع الدعوي من كثير من الافتراقات والانشقاقات والانقسامات ؛ فإنك إن تكلمت في نازلة قبلهم كنت متبوعا من غيرك مهما كان حجمك، أو كان رأيك ؛ فلكل ساقطة لاقطة، فحينها تكون رأسا، وتتحمل تبعات كل من كان خلفك، وتضيف أوزارهم إلى وزرك، وقد يستهوينك الشيطان فتأخذك العزة والطغيان، فيصعب عليك الرجوع بين أتباعك، والخروج من سطوة سلطانك، فتزداد في إهلاك نفسك، وقد كنت في مأمن من كل ما هنالك، وهذه الحوالك من المسالك، بمجرد أن تمسك بطرف لسانك، قال المعلمي في أسباب تنكر الحق : (الأول: أن يرى الإنسان أن اعترافه بالحق

يستلزم اعترافه بأنه كان على باطل، فالإنسان ينشأ على دين أو اعتقاد أو مذهب أو رأي يتلقاه من مربيه ومعلمه على أنه حق فيكون عليه مدة، ثم إذا تبين له أنه باطل شق عليه أن يعترف بذلك، وهكذا إذا كان آباؤه أو أجداده أو متبعوه على شيء، ثم تبين له بطلانه، وذلك أنه يرى أن نقصهم مستلزم لنقصه، فاعترافه بضلالهم أو خطئهم اعتراف بنقصه...

الوجه الثاني: أن يكون قد صار في الباطل جاه وشهرة ومعيشة، فيشق عليه أن يعترف بأنه باطل فتذهب تلك الفوائد .

الوجه الثالث: الكبر، يكون الإنسان على جهالة أو باطل، فيجيء آخر فيبين له الحجة، فيرى أنه إن اعترف كان معنى ذلك اعترافه بأنه ناقص، وأن ذلك الرجل هو الذي هداه، ولهذا ترى من المنتسبين إلى العلم من لا يشق عليه الإعتراف بالخطأ إذا كان الحق تبين له ببحثه ونظره، ويشق عليه ذلك إذا كان غيره هو الذي بين له.

الوجه الرابع: الحسد وذلك إذا كان غيره هو الذي بين الحق فيرى أن اعترافه بذلك الحق يكون اعترافاً لذلك المبين بالفضل والعلم والإصابة، فيعظم ذلك في عيون الناس، ولعله يتبعه كثير منهم، وإنك لتجد من المنتسبين إلى العلم من يحرص على تخطئه غيره من العلماء ولو بالباطل، حسداً منه لهم، ومحاولة لحط منزلتهم عند الناس)[1] .

فلو سكتّ عن بيان موقفك في المشتبهات : لم تقع في هذه المهلكات .

وإنما يدفع إلى تسنم مراكز التقدم بين يدي الوقائع : ما في النفس من حظوظ الظهور، والشهوة الجانحة إلى الترؤس والتصدر، ولو استحضر العبد مقامه بين يدي الله لكان له شأن آخر كما وقع للتقي النقي الخفي ابن عمر رضي الله عنهما، ففي البخاري أنه قال : (دخلت على حفصة ونَسواتها تنطُف، قلت: قد كان من أمر الناس ما ترين، فلم يجعل لي من الأمر شيء، فقالت:

---

(١) القائد إلى تصحيح العقائد ص ١٣ .

الحق فإنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة، فلم تدعه حتى ذهب، فلما تفرق الناس خطب معاوية قال: من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، فلنحن أحق به منه ومن أبيه، قال حبيب بن مسلمة: فهلا أجبته؟ قال عبد الله: فحللت حبوتي، وهممت أن أقول: أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع، وتسفك الدم، ويحمل عني غير ذلك، فذكرت ما أعد الله في الجنان، قال حبيب: حُفظت وعُصمت)[1] .

فتأمل في قوله رضي الله عنه : (فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع، وتسفك الدم، ويحمل عني غير ذلك، فذكرت ما أعد الله في الجنان)، تدبر أغوارها وستجد في هذه الكلمة من عيون الحكمة الإيمانية، وعميق النظرة الشرعية ما يجعلها نبراسا لنا في فتننا الداخلية ومحننا الدعوية .

فإياك أن تكون متبوعا في المشتبهات والنوازل الملتبسات وأنت في مندوحة عنها -لاسيما إن لم تكن من العلماء المجتهدين، كما هو حال أكثر المتصدرين- فتفرق الجمع، وتنتهك الأعراض، وتحمل العبارات على غير وجهها، فيزداد داء الشقاق علة، و ينحدر مجتمع الدعوة إلى قلة .

***

(١) البخاري (٤١٠٨) .

(٦)
لسانك إما غانم
أو سالم أو غارم

نِعَم الله سبحانه وتعالى علينا تتوافد تترا كل حين، وتُصب سابغة ممسين ومصبحين كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]، وإن من واجبنا تجاه نعم الله سبحانه وتعالى أن نوظفها في وظيفتها، وأن نعرف حقها، وأن نبادرها بالحمد والشكر، وأن نحذر من مقابلتها بالنكران والكفر؛ فإن الله سبحانه وتعالى سخط على أقوام أبدلوا نعم الله كفرا فقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم:٢٨، ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]، ومن شكر نعم الله سبحانه وتعالى استخدام تلك النعم في تحقيق العبودية لله جل وعلا ونشر الفضائل، والحذر من مغبة تسخيرها كمطية لنشر الرذائل، فإن ذلك لا يتوافق مع الشكر، بل هو عين النكر، ومن أجلّ هذه النعم نعمة اللسان، التي يحصل بها البيان، الذي اختصه الله سبحانه وتعالى لهذا الإنسان، وامتن عليه في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن:١– ٤]، فالله سبحانه وتعالى علم هذا الإنسان البيان ليحقق به العبودية من الذكر والدعاء والدعوة، وحتى يحصل به مصالحه ومنافعه في هذه الدنيا .

ولكننا بنظرة عجلى إلى واقعنا الدعوي نجد أن كثيرا منا حاد باللسان عن

وظيفتـه، وانحـرف بـه عـن وجهتـه، وقـد حكـى اللـه سـبحانه وتعالـى ذلـك فقـال تعالــى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النسـاء: ١١٤]، فنفـى اللـه سـبحانه وتعالـى الخيريـة فـي كثيـر مـن كلام النـاس إلا أن يكـون فـي ذلـك مصلحـة إمـا دنيويـة أو أخرويـة .

وقـال صلى اللـه عليـه وسـلم محـذرا مـن مغبـة ركـوب اللسـان وولوجـه فـي كل ميـدان بعـد أن بيـن لمعـاذ – رضـي اللـه عنـه – معالـم هـذا الديـن قـال لـه بعـد ذلـك كمـا فـي الترمـذي : (ألا أدلـك علـى مـلاك ذلـك كلـه أمسـك عليـك هـذا) وأشـار إلـى لسـانه، فقـال معـاذ : (أو مؤاخـذون بمـا نقـول ؟) قـال صلـى اللـه عليـه وسـلم: (ثكلتـك أمـك يـا معـاذ، وهـل يكـب النـاس علـى وجوهـم أو مناخرهـم إلا حصائـد ألسـنتهم ؟!)[1]، فـإن حصائـد الألسـن تقـود صاحبهـا إلـى سـبل الـردى، وتنـأى بـه بعيـدا عـن سـبل الهـدى ؛ لذلـك أورد الإمـام مالـك – رحمـه اللـه تعالـى فـي الموطـأ قصـة عظيمـة وهـي أن عمـر – رضـي اللـه عنـه – دخـل يومـا علـى أبـي بكـر فوجـده يجبـذ لسـانه أي يجـذب ويشـد لسـانه ويقـول: (إن هـذا أوردنـي المـوارد) [2]، أي المهالـك . وإن تعجـب فاعجـب أن القائـل هـو أبـو بكـر – رضـي اللـه عنـه – الـذي كان لسـانه يقطـر إيمانـا وحكمـة، أبـو بكـر الـذي سـطر بلسـانه أروع العبـارات، وأعظـم المقـالات، التـي أضـاءت لهـا الصفحـات، ومـع ذلـك يقـول : هـذا أوردنـي المـوارد .

فمواقـف عديـدة وقفهـا أبـو بكـر – رضـي اللـه عنـه – شـاكرا نعمـة اللسـان : مـن ذلـك ثلاثـة مواقـف هـي مـن أعصـب وأصعـب المواقـف التـي مـرت علـى الأمـة الإسـلامية وقفهـا ليـؤدي وظيفـة لسـانه ويـؤدي شـكر ربـه عليهـا :

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣١، ٢٣٧) . والترمذي: كتاب الإيمان (٢٦١٦) : باب ما جاء في حرمة الصلاة. وابن ماجة: كتاب الفتن (٣٩٧٣) : باب كف اللسان في الفتنة. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠١٢) .

(٢) موطأ مالك : (٢/ ٩٨٨) .

أول موقف : لما فقدت الأمة رسولها : فوقف أبو بكر - رضي الله عنه- موظفا للسانه ومتابعا لمسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحقيق التوحيد لرب العبيد وفي إخلاص القلب عن كل شائبة للغلو أو التنديد، قال مواسيا الصحابة في غربتهم، ومسليا لهم في كربتهم مع لوعة في قلبه لفراق حِبه : (ألا إن من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا الآية : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، هذا الموقف العظيم الذي أظهر فيه أبو بكر عظمة ومصداقية لسانه حتى أثرت هذه الكلمات في الصحابة فقالت عائشة -كما في الصحيحين- : فنشج الناس يبكون ويرددون : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾[آل عمران: ١٤٤] [١]، فلتكن ألسنتنا متطلعة إلى معالي الكلمات، وجلائل العبارات .

الموقف الثاني : لما كادت تنشأ نواة الفرقة بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في السقيفة في شأن الخلافة قال عمر - رضي الله عنه - مصورا ذلك المقام كما في الصحيحين قال : (فزورت في نفسي كلاما خشيت أن لا يبلغه أبو بكر - أي زينت كلاما أعجبني في نفسي أردت أن أقدمه بين يدي أبي بكر في السقيفة قال: فقدم أبو بكر فأجلسني فتكلم أحسن الناس- أي تكلم كلاما من أحسن كلام الناس - فوالله ما من كلمة أعجبتني في تزويري إلا وأتى بأفضل منها في بديهته) [٢]، أي في لحظته بلا تهيئة ولا إعداد، وذلك للصدق في تعبيد اللسان لرب العباد .

الموقف الثالث : لما تنصلت فِئَامٌ من العرب وانخلعت عن شعيرة الزكاة قام فيهم أبو بكر مشهرا سِنانه ومظهرا لسانه فقال تلك الكلمات التي تدلنا على أصالة المبدأ ومتانة المعتقد : (والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدُّونه على

---

(١) رواه البخاري (٤٤٥٤) .

(٢) رواه البخاري (٦٨٣٠) .

عهد رسول الله لقاتلتهم على منعه)[١].

بعد كل هذه العبارات الرائدة وهذه المقالات الخالدة من لسان أبي بكر يقول : " هذا أوردني الموارد " فماذا نقول نحن لألسنتنا التي أطلقنا لها العنان، فولغت في أعراض العباد، وأسلسنا لها القياد، حتى سعت في الأرض بالفساد، فغدت ألسنتنا مستنقعات للفحش والبذاء والهمز، وأوعية للطعن واللمز، والغيبة والغمز ؟!

لكل ذلك وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدة عظيمة للسان فقال كما أورده الإمام ابن المبارك في كتاب الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت قال: (رحم الله عبدا قال خيرا فغنم، أو سكت عن سوء فسلم)[٢] .

وهذا الحديث هو عمدة قاعدتنا، فاللسان يدور حول هذه القسمة الثلاثية :

غانم أو سالم أو غارم .

والثالثة لم يذكرها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ للعلم بها، فمفهوم حاصل الحالتين هو الحالة الثالثة، وهي : أو قال شرا فغرم . وهذه طريقة عقلية في القضايا البرهانية كما قال الأخضري :

والحذف في بعض المقدمات   أو النتيجة لعلـــــم آت

فلسانك :

- إما أن يتكلم في خير فيغنم في الدنيا الإصلاح والنفع والصواب، وفي الآخرة الأجر والثواب .
- وإما أن يسكت عن شر فيسلم في الدنيا من التبعات، وفي الآخرة من السيئات .
- وإما أن يتكلم في شر فيغرم أثره عاجلا، أو وزره آجلا .

فاربأ بنفسك أن تكون من أصحاب الحالة الثالثة فلا ينالك دعاء النبي

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٠ و١٤٥٦ و٦٩٢٥ و٧٢٨٥)، ومسلم (٢٠ ـ ٣٤ و٣٥) .

(٢) السلسلة الصحيحة : (٨٥٥) .

صلى الله عليه وسلم بالرحمة في هذا الحديث فتهلك .

وهذه القاعدة تقلل كثيرا من الآفات التي تعترض طريق الدعاة، فأعظم آلات الدعوة اللسان، فإذا أطلقته تسلل الفساد إلى الدعوة، فخذ بتلابيبه، ودقق في حركاته وأساليبه، وتذكر على الدوام قوله صلى الله عليه وسلم كما في المسند: (من صمت نجا)[1] .

***

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة: (٤/ ٦٦٠)، رقم (٢٥٠١) ؛ الدارمي، كتاب الرقائق، باب الصمت:(٢/ ٣٨٧)، رقم (٢٧١٣) ؛ الإمام أحمد، المسند: (٢/ ١٥٩)، رقم (٦٤٨١) . وصححه الألباني كما في صحيح الجامع: رقم (٦٣٦٧) .

(٧)
ما خرج لن يعود

مما هو معلوم يقينا أن ما خرج من لسانك لا يمكن أن يعود إليه :

قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا

فما اعتذارك من قول إذا قيـــلا

إذا تأملت في هذه القاعدة، وضممتها لسابقتها : فكرت وقدرت فيما تقول، ومن حكم أسلافنا الكرام ما أورد ابن كثير في تفسيره عن التابعي الجليل علقمة بن وقاص الليثي، وهو أنه كان يقول : (كم من كلام منعنيه حديث بلال)[١]، أي كم من كلام أراد أن يتكلم به، ولكنه يمتنع ؛ لتذكره لحديث بلال :

وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه)[٢]، فما أعظمها من كلمة، وما أروعها من حكمة، إنها مرابطة تامة على حصون لسانه، ومراقبة لله سبحانه وتعالى في جميع أحواله، دالة على إحسانه.

وأورد الإمام أبو علي البغدادي في رسالته المغنية في السكوت ولزوم البيوت قول ابن مسعود - رضي الله عنه - : (والذي لا إله إلا هو ما على وجه الأرض أحوج إلى طول سجن من لسان) [٣]، وصدق - رضي الله عنه - فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ليس شيء في الجسد إلا وهو

---

(١) تفسير ابن كثير : (٧/ ٣٩٨) .

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٦٩) والترمذي (٢٣١٩) وابن ماجه (٣٩٦٩) .

(٣) الرسالة المغنية ص ٢٥، حلية الأولياء لأبي نعيم (٤٢١) .

يشكو ذرب اللسان على حدته)[١].

فاللسان هو أخطر ما في الإنسان بعد الجنان، أليس اللسان هو الأداة التي رفعت بها رايات الكفر، وشعارات الشرك، ونسبة الولد والصاحبة لله الصمد : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم:٨٨- ٩١] ؟!

أليس اللسان هو الأداة التي نسبت إلى الله سبحانه وتعالى النقائص، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]؟!

أليس اللسان هو أداة الكذب والافتراء ؟!

أليس اللسان هو أداة الطعن والغيبة ونشر الفتن والبغضاء ؟!

قال ابن القيم : (ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالا، ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول.

وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي أني لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحبطت عملك» فهذا العابد الذي قد عبد

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٤٥٩٦)، وانظر السلسلة الصحيحة : (٣٥٣) .

الله ما شاء أن يعبده، أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله.

وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك، ثم قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته)[١] .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : «لا يرمي رجل رجلا بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك »[٢]، وقال صلى الله عليه وسلم : « الربا اثنان وسبعون بابا، أدناها مثل إتيان الرجل أمه، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه » [٣].

فما خرج لن يعود إلا مع لوعة الاعتذار، وهو الموقف الذي لا ينبغي الوقوع في أسبابه إلا على وجه الاضطرار، فقد جاء أعرابي فقال يا رسول الله أوصني وأوجز، فقال صلى الله عليه وسلم : «إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدا، وأجمع اليأس عما في أيدي الناس»[٤].

وصية موجزة كما حددها طالبها- لكنها جامعة مانعة ؛ ففيها إصلاح الباطن بالخشوع في الصلاة وتذكر لقاء الله، وفيها إصلاح الظاهر بعدم التطلع إلى ما في أيدي الناس لحظا ولفظا، وهما متلازمان، وفيها إصلاح اللسان بعدم التكلم بما مغبته الاعتذار والذل والانكسار، وما كل من تعتذر له قابل لعذرك، جابر لكسرك، ساتر لخطئك، رافع لذُلك، فزن المقال قبل إخراجه، وتخير الكلم قبل إنفاذه، صيانة لنفسك، وطاعة لربك الذي قال : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾، فلم يقل : حسن، وإنما قال : أحسن .

والعلة في ذلك : ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾، فاقطع الطريق أمام نزغاته، وجفف كل ينبوع يصب في همزاته، وأغلق كل باب يؤدي إلى تحريشاته .

---

(١) الداء والدواء ص ١٥٩ .

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٥) .

(٣) السلسلة الصحيحة : (١٨٧١)، مع منازعة في أول الحديث .

(٤) رواه أحمد (٥ / ٤١٢) وابن ماجه (٤١٧١)، بإسناد حسن، انظر السلسلة الصحيحة (٤٠١) .

وتأمل في صيانة أئمتنا لألسنتهم ؛ اتباعا لهدي نبيهم، فعن عمير بن إسحاق قال : (ما تكلم عندي أحد كان أحب إذا تكلم أن لا يسكت من الحسن بن علي، وما سمعت منه كلمة فحش قط إلا مرة، فإنه كان بين الحسن وعمرو بن عثمان خصومة في أرض، فعرض الحسن أمرا لم يرضه عمرو، فقال الحسن: فليس له عندنا إلا ما يرغم أنفه، قال : فهذه أشد كلمة فحش سمعتها منه !!!)[1] .

فليت شعري أين عمير من قواميس الشتائم التي نخرت الوسط الدعوي، وطوفان الاتهامات في الظاهر والباطن التي جرفت الدعاة، فامتلأت بها الساحات، وسودت بها الكتابات، ودوت بها الصوتيات، حتى غدا العامة شاكين في كل داعية، متفكهين بكل مصلح، ضاربين بعضهم ببعض في كل محفل، وكفى به صدا عن سبيل الله : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

***

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٢٢٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق : (١٣/ ٢٥٢)، وانظر البداية والنهاية : (١١/ ١٩٨) .

(٨)
كفى بالمرء كذبًا
أن يحدث بكل ما سمع

هـذه قاعـدة شـرعية وحقيقـة واقعيـة، وهـي حديـث عـن النبـي صلـى اللـه عليـه وسـلم رواه مسـلم وغيـره [١]، وهـو يشـخص آفـة متـى تسـللت إلـى المجتمـع الدعـوي كثـر اضطرابـه، وقـل صوابـه، عـن ابـن وهـب، قـال: قـال لـي مالـك: (اعلـم أنـه ليـس يسـلم رجـل حـدث بـكل مـا سـمع، ولا يكـون إمامـا أبـدا وهـو يحـدث بـكل مـا سـمع)، وقـال عبدالرحمـن بـن مهـدي : (لا يكـون الرجـل إمامـا يقتـدى بـه حتـى يمسـك عـن بعـض مـا سـمع)[٢] .

فـإذا سـمعت الـكلام فـلا يكـن همـك نقلـه، بـل احتفـظ بـه فـي يـدك قبـل أن تدخلـه فـي قلبـك، ثـم تثبـت مـن صدقـه وتدبـر عاقبتـه فـإن كانـت إلـى خيـر بثثـه، وإن كانـت إلـى شـر كتمتـه، وتخلصـت منـه ورميتـه، فالكـذب ليـس شـرطا أن يكـون فـي أصلـه، وإنمـا قـد يكـون فـي وصفـه بسـوء فهمـه، ووضعـه فـي غيـر محلـه .

فنجـد وللأسـف أن الكلمـة تقـال فـي المجلـس فتبلـغ الآفـاق، وفـي هـذا تحقـق للنبـوة الصادقـة، مـن رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسـلم حيـن رأى فـي منامـه – وهـي رؤيـا حـق – رجـلا جالسـا بيـده كلـوب مـن حديـد يدخلـه فـي شـدقه حتى يبلـغ قفـاه، ثـم يفعـل بشـدقه الآخـر مثـل ذلـك، ويلتئـم شـدقه هـذا، فيعـود فيصنـع مثلـه، قلـت: « مـا هـذا؟ قـال : كـذاب يحـدث بالكذبـة، فتحمـل عنـه حتـى تبلـغ الآفـاق،

---

(١) مقدمة صحيح مسلم : (١/ ١٠)

(٢) مقدمة مسلم : (١/ ١١) .

فيصنع بـه إلـى يـوم القيامـة »[١] .

فـلا تتحمـل مسـؤولية نقلهـا، وانتظـر نشـرها مـن غيـرك مـا دمـت لـم تتثبـت منهـا صـدورا، أو توجسـت منهـا أمـورا، ولـم تعـرف وجـه الشـرعية فـي نقلهـا .

قلـب فـي قلبـك تسـاؤلات قبـل نقلهـا : هـل قالهـا فـلان صدقـا ؟ هـل هـذا وجههـا حقـا ؟ هـل قصد ظاهرهـا عمـدا ؟ هـل يجـوز نقلهـا شـرعا ؟ هـل فـي نقلهـا مصلحـة متحققـة قطعـا ؟

فـإن كانـت إحـدى الإجابـات بالنفـي فألقهـا عنـك، ولا تقلـب بهـا قلبـك، فضـلا عـن أن تحـدث بهـا نفسـك ؛ فـلأن تخطـئ فـي السـكوت خيـر مـن أن تخطـئ فـي الإشـاعة والإذاعـة، التـي قـد تتحمـل كفلهـا إلـى قيـام السـاعة .

ولا تنسـاق وراء الأهـواء الخفيـة فقـد يكـون الـكلام لامـس مصلحـة نفسـية مـن وقيعـة فـي خصـوم ألـداء، أو نصـرة لأخـلاء، أو جمـع لوجـوه الجلسـاء، وتذكـر قولـه صلـى اللـه عليـه وسـلم : « ثـلاث منجيـات: خشـية اللـه فـي السـر والعلانيـة، والقصـد فـي الفقـر والغنـى، وكلمـة الحـق فـي الغضـب والرضـا»[٢]، فاضبـط كلماتـك ونقولاتـك مـع تقلـب عواطفـك، واكبـح جمـاح نفسـك وشـهواتك.

***

(١) صحيح البخاري (١٣٨٦)، مختصرا .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٤٣، والمنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٨٦، باب الترهيب من ترك السنة، وصححه الألباني انظر: صحيح الجامع الصغير ١/ ٥٨٣، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ٤١٢ - ٤١٦.

(٩)
إياك وردود الأفعال

كثير من الناس يبني دعوته على ردود الأفعال، وهذا مناف للتجرد التام لذي الجلال .

وأكثر الفرق إنما أتيت من هذا الباب :

فظهرت الخوارج بغلوها وتكفيرها فكانت ردة الفعل بالتباعد عن هذه المهالك والمبالغة في ذلك فظهرت المرجئة على طرف نقيض، وسبيل الحق بينهما .

وظهرت القدرية التي تنكر القدر، فكانت ردة الفعل، فنشأت طوائف الجبرية .

وظهرت مقالة المعطلة وشهرتها الجهمية، فكانت ردة الفعل من المشبهة، حتى وقع في براثن التشبيه طوائف بالغت في الإثبات كردة فعل على النفي .

وبهذا ينضح التاريخ وفي جوانب متعددة، وأما الواقع الدعوي فهو شاهد على ذلك أيضا :

فإذا رمي الدعاة بالجمود والأصولية والرجعية بالغ البعض في التباعد من ذلك، ومحاربته والرد عليه حتى يقع في التحلل من النصوص والترهل، وأحيانا : العلمانية المنتقبة [١].

والعقل والنقل يستوجب النظر في جميع التهم الموجهة للداعية، وجميع

---

(١) ولي بهذا العنوان بحث تحت العمل .

المقالات المخالفة، ثم يسبر أغوارها، ويقارنها بأحوالـه، وبعد ذلك إن وجد منها ما يصلحه استفاد منها، وإن وجد ما يفسده استعاذ بالله منها، وردها على قائلها، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهودي حين قال : « إنكم تنددون، وإنكم تشركون : تقولون : ما شاء الله وشئت، وتقولون : والكعبة، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة، ويقولون : ما شاء الله ثم شئت»[1]، فتأمل كيف دعا النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة ونهاهم عن ذلك، ولم يكن همه رد قول اليهودي وإبطاله وإلجامه، وإقرار عيون الصحابة بتجهيله وتسفيهه وإلزامه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾.

فهكذا ينبغي أن تكون مواقف الدعاة متى وجهت الاتهامات نظروا في أسبابها وبواعثها ومستندها وشبهاتها ثم إن وجدوا منها حقا قبلوه، وشكروا لناصحهم، وإلا حمدوا الله، وذبوا عن أعراضهم .

وبسبب ردود الأفعال والجهل بالمنهج النبوي في التعامل مع الأقوال وقعت في الساحة الدعوية هوات سحيقة، وشقوق عميقة : فإذا رأى بعضهم آفة التقليد تنخر في الجسد الدعوي بدأ في رده وإبطاله دون توازن علمي أو تأصيل شرعي حتى يقع في انتقاص الأئمة، والانقلاب على علماء الأمة، بل وعلى شيخه الذي له عليه منة، حتى يثبت للملأ تجرده للدليل، وقطعه لدابر التعصب الوبيل .

وإذا علم بقاعدة بدعية توجب التعاون مع الجميع دون تفصيل كر عليها بالإبطال والتفنيد، حتى يقع في الغلو برفض التعاون مع كل مخالف مهما كان خلافه، ومهما كان مقصود التعاون وأهدافه .

وإذا وجد بعضهم يهون من شأن المبتدعة بالغ في رده حتى جعل جميع

---

(١) سنن النسائي (٣٧٧٣)، وهو في السلسلة الصحيحة (١٣٦) .

من وقع في بدعة على رتبة واحدة في الضلال والهجر دون تفريق بين جاهل وعالم، ولا داعية وعامي، ولا بدعة اجتهادية أو مفسقة أو مكفرة، حتى محي من قواميس بعض الدعاة مصطلح الأخوة الإيمانية، وأن الأصل في المسلم أن له حق التواصي بالحق، والتعاون في إقامة الدين بين الخلق، تحت مظلة قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، وقد من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه الأخوة والألفة فقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ ولولا عظمة هذه المنة لما امتن الله بها على رسوله بهذا الأسلوب القرآني الفائق، البليغ الرائق.

فكل كلام يقال لا بد له من ميزان بالقسط، فهذا شيخ الإسلام يتعامل بهذا القسطاس المستقيم، والمنهج القويم حتى مع المقالات الفاسدة للفلاسفة والمتكلمين، فيستفصل عن الألفاظ الحادثة، ويبين أن ما وافق منها الحق يستدل لها بالكتاب والسنة ويجتنب اللفظ، وما فيها من باطل يرد بالبرهان والحجة، وهذه القاعدة العامة مع ألفاظ الجسم والجوهر والعرض وغيرها مما أطلقه أهل البدع نفيا أو إثباتاً، وقد قلت تقعيدا لذلك في الدرة الستينية:

ولا تَخُضْ في هذه الكِلْمَاتِ ... الحدِّ والمكانِ والجهاتِ
كذا تحيّزٌ ولفظُ الجسْمِ ... وجوهرٍ وعرضٍ للسَّلْمِ
فلم يَرِدْ شرعٌ بذكرِ ذاكا ... فقفْ ودوماً خالفنْ هواكا
ولازمٌ من ذاكَ نفيُّ الذاتِ ... فاحذرْ قَبولَ النفيِّ والإثباتِ
من غيرِ ما تبَيّنٍ لما قُصِدْ ... من ذلك الإطلاقِ فاسألْ واقتصدْ

وهكذا ينبغي التعامل مع كل عبارة مجملة، أو قاعدة محتملة، أو تهمة مسلطة:

التأمـل فـي خوافيهـا، وتحليـل تفاصيلهـا، والتحلـي بالحلـم والإنصـاف قبـل الحكـم عليهـا .

***

(١٠)
ليس لك أن تأخذ موقفًا في كل فتنة

هـذه القاعـدة لا ينبغـي الخـلاف فيهـا ؛ فإنـه لا يجـب تعيينـا علـى المؤمـن إلا إقامـة أركان الإيمـان والإسـلام، وأمـا مـا عـدا ذلـك مـن التعليـم والفتـوى والدعـوة والأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر ونحوهـا، فهـي فـي الأصـل مـن فـروض الكفايـات، لا تتعيـن إلا بضوابطهـا، ولا يجـوز الخـوض فيهـا إلا بعلـم بتفاصيلهـا، وتحقيـق المصلحـة بتحصيلهـا ؛ لقولـه تعالـى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ .

ومـن أعظـم مـا ينبغـي التباعـد عـن ولوجـه، مـا كان مـن فتـن بيـن المسـلمين عمومـا والدعـاة خصوصـا، لا سـيما مـا يتعلـق بالدمـاء والأعـراض، وقـد سـبق معنـا قولـه صلـى اللـه عليـه وسـلم : (سـتكون فتـن القاعـد فيهـا خيـر مـن القائـم، والقائـم فيهـا خيـر مـن الماشـي، والماشـي فيهـا خيـر مـن السـاعي، مـن استشـرفها تستشـرفه)، وفـي لفـظ لمسـلم : (والنائـم فيهـا خيـر مـن اليقظـان)[1] .

فتأمـل : لأن تكـون نائمـا فـي الفتـن والهـرج والمـرج، والقيـل والقـال، بعيـدا عـن تتبعهـا وتلطيـخ اللسـان والقلـب بهـا : خيـر مـن أن تخـوض فيهـا وأنـت مـا زلـت فـي أول طريـق العلـم، ومـا تـزال تجاهـد نفسـك علـى الحكمـة والـورع والحلـم، ودونهمـا فسـيكون مآلـك إلـى الانحـراف والبغـي والظلـم .

قـال الآجـري : (فـإن الفتـن علـى وجـوه كثيـرة، وقـد مضـى منهـا فتـن عظيمـة، نجـا منهـا أقـوام، وهلـك فيهـا أقـوام باتباعهـم الهـوى، وإيثارهـم للدنيـا، فمـن أراد

---

(١) صحيح مسلم، وقد سبق .

الله به خيرا فتح له باب الدعاء، والتجأ إلى مولاه الكريم، وخاف على دينه، وحفظ لسانه، وعرف زمانه، ولزم المحجة الواضحة السواد الأعظم، ولم يتلون في دينه، وعبد ربه تعالى، فترك الخوض في الفتنة، فإن الفتنة يفتضح عندها خلق كثير، ألم تسمع إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم، وهو محذر أمته الفتن ؟ قال: «يصبح الرجل مؤمنا، ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا، ويصبح كافرا»)[1] .

وكل ما نراه ونسمعه من إلزامات باتخاذ موقف معين فيما هو مختلف فيه بين أهل السنة : لا شك مخالف للقرآن والسنة فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، والجهل عذر مانع من التكليف كما هو أصل من أصول السلف، فكيف بما هو غير مكلف به أصلا ؟!

قال قتادة : (وإياكم والتكلف والتنطع والغلو والإعجاب بالأنفس، وتواضعوا لله عز وجل لعل الله يرفعكم، قد رأينا والله أقواما يسرعون إلى الفتن، وينزعون فيها، وأمسك أقوام عن ذلك هيبة لله ومخافة منه، فلما انكشفت إذ الذين أمسكوا أطيب نفسا، وأثلج صدورا، وأخف ظهورا من الذين أسرعوا إليها وينزعون فيها، وصارت أعمال أولئك حزازات على قلوبهم كلما ذكروها، وأيم الله لو أن الناس يعرفون من الفتنة إذا أقبلت كما يعرفون منها إذا أدبرت : لعقل فيها جيل من الناس كثير، والله ما بعثت فتنة قط إلا في شبهة وريبة)[2] .

وهذا الزمان أولى الأزمنة بالتوقف ؛ لكثرة ما يعرض فيه من اشتباه ؛ لذلك قال ابن مسعود : (إنكم في زمان خيركم فيه المسارع في الأمور، وسيأتي زمان بعدكم خيرهم فيه المتثبت المتوقف ؛ -يعني لكثرة

(١) الشريعة للآجري : (١/ ٣٩٣) .
(٢) حلية الأولياء : (٢/ ٣٣٦) .

الشبهات-) [١].

وقال سفيان الثوري : (هَذَا زمان السّكُوت، وَلزُوم البيُوت، والرّضا بالقوت إلى أن تَمُوت)[٢] .

وقال الفضيل بن عياض : (هَذَا زمَان احفظ فيه لسَانَك، وأخفِ مَكانك، وَعالج جفانَك، وخذ مَا تعرف وَدَع مَا تنكر لتصلح شأنكَ)(٣)، وتذكر فضل زمانهم ؛ لتعلم أننا أحق بأقوالهم .

وليس كل ما يقال هنا وهناك يمكن تنزيله في جميع المحال، فإذا كانت النصوص تتطلب فقها لفهمها أولا، ولتنزيلها ثانيا، فكيف بالكتابات بله المقالات التي يعتريها ما يعتريها، قال ابن القيم : (ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأمكنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل، وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبب الناس كلهم على اختلاف بلادهم وعوائدهم وأزمنتهم وطبائعهم بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم، بل هذا الطبيب الجاهل، وهذا المفتي الجاهل أضر ما على أديان الناس وأبدانهم، والله المستعان)(٤).

هذا في مجرد الإفتاء فكيف بالإلزام فيما لا يجب على الأعيان إلا بسلطان ؟!

قال شيخ الإسلام : (فإذا كان المعلم أو الأستاذ قد أمر بهجر شخص؛ أو بإهداره وإسقاطه وإبعاده ونحو ذلك: نظر فيه : فإن كان قد فعل ذنبا شرعيا عوقب بقدر ذنبه بلا زيادة، وإن لم يكن أذنب ذنبا شرعيا لم يجز أن يعاقب بشيء لأجل غرض المعلم أو غيره . وليس للمعلمين أن يحزبوا الناس ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البر

(١) انظر صيانة الإنسان ص ٣٠٩ .

(٢) التمهيد لابن عبدالبر: (١٧/ ٤٤٣) .

(٣) حلية الأولياء: (٨/ ٩٤) ؛ سير أعلام النبلاء: (٨/ ٤٣٦) .

(٤) إعلام الموقعين : (٣/ ٢٥٤) .

والتقوى كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ .

وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد عهدا بموافقته على كل ما يريده؛ وموالاة من يواليه؛ ومعاداة من يعاديه بل من فعل هذا كان من جنس جنكيزخان وأمثاله الذين يجعلون من وافقهم صديقا مواليا، ومن خالفهم عدوا باغيا؛ بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله بأن يطيعوا الله ورسوله؛ ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله؛ ويحرموا ما حرم الله ورسوله؛ ويرعوا حقوق المعلمين كما أمر الله ورسوله. فإن كان أستاذ أحد مظلوما نصره وإن كان ظالما لم يعاونه على الظلم بل يمنعه منه؛ كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما قيل: يا رسول الله أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما قال: تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه» . وإذا وقع بين معلم ومعلم، أو تلميذ وتلميذ، أو معلم وتلميذ خصومة ومشاجرة: لم يجز لأحد أن يعين أحدهما حتى يعلم الحق، فلا يعاونه بجهل ولا بهوى، بل ينظر في الأمر: فإذا تبين له الحق أعان المحق منهما على المبطل سواء كان المحق من أصحابه أو أصحاب غيره؛ وسواء كان المبطل من أصحابه أو أصحاب غيره، فيكون المقصود عبادة الله وحده، وطاعة رسوله ؛ واتباع الحق، والقيام بالقسط) [(١)].

ولا مزيد على هذه التأصيل السديد من هذا الإمام الرشيد .

---

(١) مجموع الفتاوى : (٢٨/ ١٥-١٦) .

(١١)

المنهج بين الغلو والإجحاف

كلمة "المنهج" من الكلمات التي مورس فيها صورٌ عدةٌ من الإرهاب الفكري، فكل داعية أصبح خائفا أن يتهم من البعض في منهجه بالكلمات التي صكت الآذان، وأرقت الجنان، فغدت كلمة "المنهج" مخيفة مروعة، وهي في نهايتها كلمة مختلف في معناها بين السلف العظام، وأئمتنا الأعلام، وحتى مشايخنا المعاصرين الكرام، ففي قوله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ قال ابن عباس : سنة وسبيلا . وفي رواية : سبيلا وسنة، وأقوال السلف حول معناه متنوعة [١] .

وعند علماء السنة المعاصرين خلاف أيضا فبعضهم يرى بأن "المنهج" شامل للدين كله فيدخل فيه العقيدة والشريعة، وبعضهم يقول بأن "المنهج" طريقة تبليغ الإسلام فعليه ليست العقيدة داخلة في حده .

فإذن ليس "المنهج" هو المفهوم الضيق الذي في بعض الأذهان : وهو الموقف من الفئة الفلانية أو فلان وعلان، فهذا مصطلح حادث بهذا التصور ؛ فلذلك من تضلع في عقيدة السلف، وفهم نصوص الوحيين، وحقق في الفقه، وطرق الاستدلال، وإن جهل حال كثير من الناس كان أكمل منهجا ممن علم عن فلان وعلان والفئة الفلانية وما لها وما عليها، مع جهله في عقيدة السلف تفصيلا، واستعجام نصوص الوحيين عليه،

---

(١) وانظر معانيها في تفسير ابن جرير : (١٠/ ٣٨٤)، وما بعدها .

وأجنبية الفروع الفقهية عن نظره ؛ لأن غاية الثاني اطلاعه السطحي على جزئية يسيرة من علم الجرح والتعديل، وهو علم الخواص وأعلى الهرم، مع هجره لعلم العامة، وقاعدة الشرع التي فيها إصلاح باطنه وظاهره .

وشر من هذا من يحصر "المنهج" في موقفين أو ثلاثة من مواقف وقع الخلاف فيها حتى بين علماء السنة الكبار، ثم يريد أن يمتحن الناس بها عالمهم وجاهلهم، فلا هو يرضى من العالم اجتهادا، ولا من الجاهل تقليدا، ولا من المتردد توقفا، فيلزم الجميع باتخاذ الموقف الواحد الذي توصل إليه هو وبعض من يقلده، فتعظم البلية، وتتضاعف الرزية، يقول شيخ الإسلام : (وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع، وللاجتهاد فيه مساغ : فلا ينكر على من عمل بها مجتهدا أو مقلدا)[1] .

ولكن للأسف تسمع هنالك الإطلاقات الهوجاء على المقلدين والمتعلمين والعلماء - على حد سواء - بأن منهجه فيه : دخن، أو خلل، أو غير واضح، أو منحرف، أو ضال .

أو فلان : مائع، أو متلون، أو ضائع، أو مسكين، أو مجرم، أو دجال ... وهلم جرا من مفردات جائرة ليتها صدرت من علماء الجرح والتعديل: إذن لكان لها وجهها، ولكنها وللأسف تصدر من شباب تموج بهم الحماسات الخاوية والعواطف الفارغة، متناثرين هنا وهناك في أصقاع الأرض، يجترون ما يقوله بعض العلماء وينزلونه في غير موضعه، مع جهلهم التام بضوابط تحقيق المناط.

غاية حظهم من علوم الشرع أنهم سمعوا بـ "المنهج" قبل أيام أو شهور فظنوا أن لهم في اكتشافه قدمَ السبق، ولسانَ الصدق، وأن أكثر دعاة بل وعلماء زمانهم جاهلون به، مجافون له، حائدون عنه، ومن قال: (هلك الناس فهو أهلكهم)، -كما سيأتي تفصيله في الحديث-، ولم يعلموا بأنها كلمة قرآنية

(١) الفتاوى الكبرى : (٩/ ١١٣) .

لها معانيها السلفية .

هذا مع أن إجماع أهل السنة منعقد على أن العذر بالجهل والتأويل متحقق حتى في تفاصيل مسائل الاعتقاد فضلا عن المسائل التي تصنف حديثا ضمن مفهوم "المنهج"، بخاصة لمن عرف باتباعه للسلف وتحريه للحق عقودا من الزمان، والله المستعان، وقال القاسمي في الجرح والتعديل : (فإذن كل من ذهب إلى رأي محتجًّا عليه، ومبرهنًا بما غلب على ظنه، بعد بذل قصارى جهده وصلاح نيته في توخي الحق فلا ملام عليه ولا تثريب؛ لأنه مأجور على أي حال، ولمن قام عنده دليل على خلافه، واتضحت له المحجَّة في غيره، أنْ يجادله بالتي هي أحسن، ويهديه إلى سبيل الرشاد، مع حفظ الأخوَّة، والتضافر على المودة والفتوة)[1] .

فجلة من الأئمة خفيت عليهم بعض مسائل الاعتقاد كمسألة اللفظ في زمن الإمام أحمد، ومسائل من القدر، والصفات، ولم نسمع أحكام التبديع والاتهام بالزندقة والدجل ونحوها مما سهل على ألسنة كثيرين بلا تثبت ولا تبيين، فالعلم بجميع أحكام الدين لا يأتي جملة واحدة، فاليوم علم وغدا مثله، قال ابن تيمية : (وكثير من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنه بدعة إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة وإما لآيات فهموا منها ما لم يرد منها وإما لرأي رأوه وفي المسألة نصوص لم تبلغهم. وإذا اتقى الرجل ربه ما استطاع دخل في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ وفي الصحيح أن الله قال: " قد فعلت ")[2] .

وأخشى أن يكون التفريق بين مسائل "المنهج" وغيرها من حيث العذر: من اتباع سنن المتكلمين، وصورة من تسلل عقائد المعتزلة والأشاعرة بين أوساط

---

(١) الجرح والتعديل ص ١٠ .

(٢) مجموع الفتاوى : (١٩/ ١٩١-١٩٢) .

الجهلة المغررين، فإن هذه الطوائف قسمت الدين إلى أصول وفروع ولم تعذر المخطئ في الأصول دون الفروع، ولذلك نجدهم يكفر بعضهم بعضا حتى بين أفراد الطائفة الواحدة كمعتزلة البصرة وبغداد كما هو مبسوط في مظانه .

وهؤلاء قسموا الدين إلى مسائل منهجية لا عذر فيها بجهل أو تقليد أو حتى اجتهاد، وبقية مسائل الدين هم أول المعذورين فيها بجهلهم .

هذا طرف الغلاة، وأما جفاة المنهج فهم أولئك المداهنون الذين خرجوا على أصول السلف في النصيحة والإنكار والرد على المخالف، ومجانبة المبتدع المجازف، فتراه منصهرا مع الكل مثنيا على النقيضين، جامعا بين أخلاط غير متجانسة من العقائد والأفكار، همه رضا الناس، وتوجسه من أن يقع عليه من المنحرفين أدنى باس، فلا هو للدين نصر، ولا على أعدائه انتصر، والله تعالى يقول : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾ .

وهذا الصنف أجنبي عن دعاة السنة الصادقين الذين أول ما يميزهم عن غيرهم : الدعوة للتوحيد وتعبيد العبيد للعزيز الحميد، على وفق سنة خاتم المرسلين، والصبر عليها حتى يأتي اليقين، وتصفية الدين من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين .

***

(١٢)
الجرح والتعديل
صراع بين الورع والهوى

علم الجرح والتعديل هو علم الخواص من المحدثين، كالقضاء للفقهاء، وهو من علوم الضرورات، فالأصل حرمة أعراض المسلمين، لكنه شرع للذب عن الدين، قال الإمام ابن دقيق العيد: (أعراض المسلمين حفرة من حفر النار وقف على شفيرها طائفتان من الناس : المُحَدِّثُونَ والحكام)[١] .

بل إن الجرح والتعديل قد يكون أشد خطرا من القضاء، قال المعلمي: (والحكم في العلماء والرواة يحتاج إلى نظر وتدبر وتثبت أشد مما يحتاج إليه الحكم في كثير من الخصومات، فقد تكون الخصومة في عشرة دراهم، فلا يخشى من الحكم فيها عند الغضب إلا تفويت عشرة دراهم، فأما الحكم على العالم والراوي فيخشى منه تفويت علم كثير، وأحاديث كثيرة، ولو لم يكن إلا حديثاً واحداً لكان عظيماً)[٢] .

فأهم مقومات هذا العلم - بعد التمكن في مسائله التأصيلية والتفصيلية - الورع التام، الذي يحملك على الإنصاف على الدوام، فإذا لم يقم في قلبك صراع بين شهوة الكلام فيه لجلالته، والورع عن تبعاته فلا تلجه، وإن لم تكن من أصحاب المراقبة الذين يستشعرون النزاع القلبي بين صيانة الشريعة وصيانة الأعراض البريئة فلا تقترب منه، قال النووي: (على الجارح تقوى الله

---

(١) الاقتراح في بيان الاصطلاح ص ٦١ .

(٢) التنكيل : (١/ ٢٤٠) .

تعالى في ذلك، والتثبت فيه، والحذر من التساهل بجرح سليم من الجرح، أو بنقص من لم يظهر نقصه ؛ فإن مفسدة الجرح عظيمة ؛ فإنها غيبة مؤبدة مبطلة لأحاديثه، مسقطة لسنة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ورادة لحكم من أحكام الدين) [١] .

وتأمل في حال أئمته كيف كان حالهم معه، فهذا إمام الجرح والتعديل يحيى بن معين يقول : (إنا لنطعن على أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة منذ أكثر من مئتي سنة) [٢] .

قال ابن مهرويه: (فدخلت على عبد الرحمن ابن أبي حاتم، وهو يقرأ على الناس كتاب «الجرح والتعديل»، فحدثته بهذه الحكاية، فبكى، وارتعدت يداه حتى سقط الكتاب من يده، وجعل يبكي ويستعيدني الحكاية، ولم يقرأ في ذلك المجلس شيئا، أو كما قال) [٣] .

وقال محمد بن الفضل العباسي : (كنا عند عبد الرحمن بن أبي حاتم وهو ذا يقرأ علينا «كتاب الجرح والتعديل»، فدخل عليه يوسف بن الحسين الرازي، فقال له: يا أبا محمد، ما هذا الذي تقرؤه على الناس؟ قال: كتاب صنفته في الجرح والتعديل، فقال: وما الجرح والتعديل؟ فقال: أظهر أحوال أهل العلم، من كان منهم ثقة أو غير ثقة، فقال له يوسف بن الحسين: استحيت لك يا أبا محمد، كم من هؤلاء القوم قد حطوا رواحلهم في الجنة منذ مئة سنة، ومئتي سنة، وأنت تذكرهم وتغتابهم على أديم الأرض؟

فبكى عبد الرحمن، وقال: (يا أبا يعقوب، لو سمعت هذه الكلمة قبل تصنيفي هذا الكتاب، لما صنفته) .

---

(١) شرح مسلم : (١/ ١٢٤)، وقريب منه قول ابن الصلاح في المقدمة ص ٣٨٩ .

(٢) ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء : (١٣/ ٢٦٨) هذه الحكاية، وانتقد لفظ المئتين بقوله : «قلت: لعلها: من مئة سنة؛ فإن ذلك لا يبلغ في أيام يحيى هذا القدر».

(٣) تاريخ دمشق : (٣٥/ ٣٦٤)، والكفاية للخطيب ص ٣٨ .

وذكـر الذهبـي هـذه الحكايـة ثـم قـال مبينـا وجـه ذلـك : (قلـت: أصابـه علـى طريـق الوجـل وخـوف العاقبـة، وإلا فـكلام الناقـد الـورع فـي الضعفـاء مـن النصـح لديـن اللـه، والـذب عـن السـنة)[١] .

وتأمـل قولـه : "فـكلام الناقـد الـورع"، وتذكـر أن هـذه أقـوال أئمـة هـذا الشـأن لا الأغـرار مـن أشـباه العـوام وصغـار الطـلاب، وهـذا كتهـرب جماعـة مـن الأئمـة عـن القضـاء مـع كونـه مـن أشـرف المقامـات، وأرفـع القربـات .

وهـذا إمـام المحدثيـن البخـاري يقـول : (أرجـو أن ألقـى اللـه ولا يحاسـبني أنـي اغتبـت أحـدا)، قـال الذهبـي : (قلـت: صـدق -رحمـه اللـه- ومـن نظـر فـى كلامـه فـي الجـرح والتعديـل علـم ورعـه فـي الـكلام فـي النـاس، وإنصافـه فيمـن يضعفـه، فإنـه أكثـر مـا يقـول : منكـر الحديـث، سـكتوا عنـه، فيـه نظـر، ونحـو هـذا .

وقـل أن يقـول: فـلان كـذاب، أو كان يضـع الحديـث . حتـى إنـه قـال: إذا قلـت: فـلان فـي حديثـه نظـر، فهـو متهـم واه . وهـذا معنـى قولـه : لا يحاسـبني اللـه أنـي اغتبـت أحـدا، وهـذا هـو واللـه غايـة الـورع)[٢]، هـذا مـع أن لـه ولأمثالـه مـن الأئمـة الجهابـذة الرخصـة فـي التجريـح الصريـح .

وهـذه المعانـي القلبيـة كانـت حاضـرة بيـن الصحابـة رضـي اللـه عنهـم، ومـن تبعهـم، ولـو أردنـا أن نقلـب تلـك الصفحـات الغـرر ممـا خلفـوه مـن محاسـبتهم للسـانهم ومراقبتهـم لربهـم لوجدنـا فـي ذلـك مواقـف عظيمـة وقصـص عديـدة نقتصـر منهـا علـى موقفيـن :

الأول : قائـد هـذا الموقـف وفـارس ميدانـه امـرأة وهـي أم المؤمنيـن زينـب بنـت جحـش - رضـي اللـه عنهـا - فـي حادثـة الإفـك[٣]، لمـا خـاض المنافقـون فـي عـرض

(١) سير أعلام النبلاء : (١٣/ ٢٦٨) .

(٢) السير : (١٢/ ٤٤١) .

(٣) صحيـح مسـلم، كتـاب فضائـل الصحابـة رضـي اللـه عنهـم- بـاب فضـل عائشـة -رضـي اللـه عنهـا- (٢٤٤٢) .

عائشة - رضي الله عنها -ونشروا الشائعات وحاكوا الأكاذيب والأراجيف حتى كادت أن تغدو هذه المقالة حقيقة مستقرة في نفوس الناس، في هذه الأثناء - وقد مرجت المدينة وأظلمت، وحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك حزنا شديدا فإن الأمر أمر عرض -جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زينب وهي ضرة لعائشة قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من زوجات رسول الله، أي هي التي كانت تقاربها وتماثلها وتنافسها، وقد خاضت أختها حمنة في حادثة الإفك اغترارا بأقوال المنافقين ومع ذلك لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب لم تقع في عرض ضرتها، ولم تطفئ نار غيرتها، ولم تتذرع بثقتها في أختها، بل استحضرت مراقبة الله سبحانه وتعالى لها وقالت تلك الكلمات التي ينبغي لكل واحد منا أن يجعلها شعارا له إذا حيكت الشائعات وانتشرت المقالات، قالت: احمي سمعي وبصري والله ما علمت إلا خيرا . قالت عائشة - رضي الله عنها - : أما زينب فقد عصمها الله بالورع فلم تهلك مع من هلك ممن نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النور: ١١]، إلى أن قال تعالى: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[النور: ١٥]، عصمها الله سبحانه وتعالى بالورع والمراقبة لله سبحانه وتعالى حتى اجتثت كل شهوة من جذورها.

والثاني : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك وتذكر الصحابي الجليل كعب بن مالك قال: أين كعب بن مالك ؟ فقام رجل من بني سلمة فقال : شغله رداؤه ونظره في برديه . أراد أن يغمز في هذا الصحابي الجليل ولكن قام معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال : بئس ما قلت والله ما علمنا عليه إلا خيرا [١] .

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) .

فتأمل في اتفاق العبارات بين معاذ رضي الله عنه في هذه الحادثة وبين زينب - رضي الله عنها - يتبين لك بجلاء مدى اتحاد المنهج، وتعانق الأفكار، واتفاق الأقوال والأفعال ؛ فإنها تصدر عن مشكاة واحدة، وهي مشكاة تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه التي أخرجت منهم هداة مهتدين، متقين، مخبتين، مطيعين .

لولا عجائب صنع الله ما نبتت تلك الفضائل في عظم ولا عصب

واليوم لو وجد الواحد منا فرصة في قرين له في جاهه أو علمه، وتلمس احتمالا للوقوع به : لدفعته شهوته الخفية نحو ذلك حثيثا، ثم يأتيه الشيطان ليلبسها له بلبوس التدين، فلا يستشعر بغيه إلا المتورعون الصادقون، فيتوبون ويصلحون، فالورع عدو الظلم، قال الغزالي : (ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق، ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه، وصلحوا على يديه : لمات غماً وحسداً، ولو أثنى أحد من المترددين إليه على بعض أقرانه : لكان أبغض خلق الله إليه، فهؤلاء أعظم الناس غرة، وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد)[١].

ثم يأتي بعد ذلك العلم التفصيلي بأصول الشريعة، وتصنيف الأحكام، ومراتب المسائل، وقواعد الحديث، وأسباب الجرح، وأحوال الواقع، ومواطن العذر، فيضع الحق في محرابه، والعدل في نصابه، قال الذهبي: (ولا سبيل إلى أن يصير العارف الذي يزكي نقلة الأخبار ويجرحهم جهبذا إلا بإدمان الطلب، والفحص عن هذا الشأن، وكثرة المذاكرة، والسهر والتيقظ والفهم، مع التقوى والدين المتين، والإنصاف، والتردد إلى مجالس العلماء، والتحري والإتقان، وإلا تفعل :

فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو سودت وجهك بالمداد)[٢] .

لذلك فلتكن هذه المواقف مثالا يحتذى، ولتكن هذه المقالة منارة

---

(١) الإحياء : (٣/ ٣٦٩) .

(٢) تذكرة الحفاظ : (١/ ١٠) .

للهدى : احمي سمعي وبصري ما علمت إلا خيرا، فارجع إلى الأمر الأول قبل الخلافات، وانتقل من المتشابه إلى المحكمات ؛ فإنها النجاة التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في الترمذي : (قيل له ما النجاة ؟ قال: أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)[1].

***

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٨)، وهو في السلسلة الصحيحة (٨٩٠) .

(١٣)
الموازنة بين النظرة المثالية والواقعية الحالية

بعض الدعاة لا يرضى من الناس إلا الحالة المثالية، مع أنه لو أنصف نفسه لما وجدها متلبسة بذلك، وأسوا من ذلك أن يلزمهم بهذه المثالية في لحظتهم، وهذه نظرة مجانبة للنصوص الداعية إلى الصبر والمصابرة والنظر إلى عوامل الاستطاعة، فالله عز وجل يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾، وأنت تلغي هذا القيد في تغييبك التام للموازنة بين المثالية والحالية، فهذا النجاشي بقي على حاله ولم يحقق المثالية في الهجرة واللحاق بالنبي صلى الله عليه وسلم ونصره والجهاد معه؛ لاعتبارات واقعية، ومع ذلك يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم عند موته: (مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة)[1]، وأدى إكراما له صلاة الغائب في المدينة.

فالخلل في هذه الموازنة يوقع في التعسير والتنفير الذي حذر منه البشير النذير حينما قال لمن التمس باجتهاده المثالية دون الواقعية: (إن منكم منفرين)[2].

فالواقع قد يوقعك في إحدى المفسدتين فتختار أدناهما، وقد يفوت عليك أحد الواجبين فتختار أعلاهما، مع أن المثالية تقتضي ترك جميع المفاسد والقبائح، والعمل بجميع الواجبات والمصالح.

فلا تطلب من الناس ما لا يستطيعون فلست ملزما بتنزيل الشرع جملة

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٤).

(٢) رواه البخاري (٧٠٢) في الأذان، و (٦١١٠) في الأدب، و (٧١٥٩) في الأحكام، ومسلم (٤٦٦).

واحـدة وهـو قـد نـزل متدرجـا، وتأمـل فـي قـول النبـي صلـى اللـه عليـه وسـلم : (إن هـذا الديـن يسـر، ولـن يشـاد الديـن أحـد إلا غلبـه، فسـددوا وقاربـوا وأبشـروا، واسـتعينوا بالغـدوة والـرواح وشـيء مـن الدلجـة)[١] .

بـل لمـا جـاءت ثقيـف واشـترطت علـى النبـي صلـى اللـه عليـه وسـلم أن لا صدقـة عليهـا ولا جهـاد، فقـال النبـي صلـى اللـه عليـه وسـلم : « سـيتصدقون ويجاهـدون إذا أسـلموا » [٢].

وهـذا عمـر رضـي اللـه عنـه يوقـف حـد السـرقة فـي عـام المجاعـة ؛ مراعـاة للواقـع .

فأنـت قـد ترضـى مـن بعـض النـاس أقـل ممـا ترضـاه مـن غيرهـم بحسـب علمهـم وطبيعتهـم وقدرتهـم، ولهـذه الاعتبـارات انطلقـت قاعـدة شـيخ الإسـلام: إن مـن المسـتحب تـرك المسـتحب لتأليـف القلـوب، ولـم ينسـجها مـن بنـات أفـكاره ولكـن مـن نصـوص كثيـرة : منهـا قولـه صلـى اللـه عليـه وسـلم: «لـولا أن قومـك حديثـو عهـد بالجاهليـة لنقضـت الكعبـة وبنيتهـا علـى قواعـد إبراهيـم»[٣] .

ولـو عملنـا بهـذه القاعـدة لاسـتوعبنا كثيـرا مـن الخلافـات، وجمعنـا شـعث صـور مـن الشـقاقات .

فـإذن عليـك أن تتعلـم المثاليـة التـي أرادهـا اللـه منـك، ومـع ذلـك لا بـد مـن التعـرف علـى الواقـع الـذي تعالجـه، وهـذه هـي طريقـة الأنبيـاء فـي دعوتهـم لأقوامهـم فهـذا موسـى فـي الإسـراء يقـول للنبـي صلـى اللـه عليـه وسـلم: (ارجـع إلـى ربـك فاسـأله التخفيـف، فـإن أمتـك لا يطيقـون ذلـك . فإنـي قـد بلـوت بنـي إسـرائيل وخبرتهـم) [٤]، فدلـه صلـى اللـه عليـه وسـلم علـى الواقعيـة التـي خبرهـا .

---

(١) رواه البخاري (٣٩) .

(٢) رواه أبو داود (٣٠٢٥)، وانظر السلسلة الصحيحة : (١٨٨٨) .

(٣) رواه البخاري في كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار مخافةَ أن يَقْصُرَ فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه الفتح: (١/ ٢٢٤) . ومسلم في كتاب الحج (٣٩٨) .

(٤) رواه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (٢٥٩) واللفظ له .

فتعاهد إيمان المدعو ورب قلبه يأتيك راغما يدفعه إيمانه، ويجره جنانه وقرآنه، كما قال جماعة من الصحابة منهم ابن عمر : (تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن، فازددنا إيمانا)[1] .

***

(١) رواه ابن ماجه (١٢٣)، وكذا أخرجه الخلال في السنة (٥٥٤)، وأشار محققه إلى أنّ إسناده حسن. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٦) .

(١٤)
لسان الحال أبلغ من لسان المقال

هـذه القاعـدة محفوظـة نظريـا، ولكنهـا وللأسـف تـكاد تفقـد واقعيـا، فلسـان حالـك الدعـوي قـد يكـون أبلـغ مـن لسـان قالـك البلاغـي ؛ فـإن النـاس كمـا تفتقـر إلـى الكلمـات فهـي كذلـك تفتقـد القـدوات، والثانـي أهـم وأبلـغ، فـلا معنـى للحديـث عـن الأمانـة ثـم فـي أول محـك تنقلـب علـى وجهـك ؟!

وما معنى الكلام عن العبادة ثم حالك مجاف لها ؟!

ما معنى الكلام عن الخلق القويم ثم لا يجد منه الناس أسوة ؟!

إن حاجـة النـاس إلـى القـدوة الحسـنة عظيمـة، فمـن الوسـائل المهمـة جدًا فـي تبليـغ الدعـوة إلـى اللـه وجـذب النـاس إلـى الحـق، وامتثـال أوامـره، واجتنـاب نواهيـه، القـدوة الطيبـة للداعيـة، وأفعالـه الحميـدة وصفاتـه العاليـة، وأخلاقـه الزاكيـة، ممـا يجعلـه أسـوة حسـنة لغيـره، يكـون بهـا أنموذجًـا يقـرأ فيـه النـاس معانـي الإسـلام فيقبلـون عليهـا، وينجذبـون إليهـا ؛ لأن التأثـر بالأفعـال والسـلوك أبلـغ وأكثـر مـن التأثـر بالـكلام وحـده[1]، ويرجـع ذلـك إلـى عـدة أسـباب، منهـا :

١ – أن في فطرة الإنسان ميلاً قويا لاتخاذ القدوات .

٢ – أن المثـال الحـي الـذي يتحلـى بجملـة مـن الفضائـل، يعطـي غيـره قناعـة بـأن بلوغهـا مـن الأمـور التـي هـي فـي متنـاول الوسـع والقـدرة، وشـاهد الحـال أقـوى مـن شـاهد المقـال .

---

(١) القدوة مبادئ ونماذج، د صالح بن حميد، ص٧ .

٣- أن المثال الحي المرتقي في درجات الكمال، يثير في الأنفس الاستحسان والإعجاب [١].

فالقدوة لها دور كبير في إعلاء الهمم وإصلاح المسلمين، فمن كان عالي الهمة اقتدى به غيره، فأصلح نفسه وأصلح غيره، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة: ١٢٤]، قال ابن كثير: (فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، ما يستحق بهذا أن يكون للناس إمامًا يقتدى به في جميع أحواله وأفعاله وأقواله)[٢].

واستخدم القرآن وسيلة اتخاذ القدوات، والإشادة بهم والأمر باتباعهم، فقال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

والله تعالى هيأ نبيه صلى الله عليه وسلم، وحسّن خلقه، وشهره بين قومه بالصدق والأمانة، ثم لما استوى على أشده، وبلغ كمال رشده، أنزل عليه الوحي وكلفه بالرسالة؛ ليكون بحاله أدعى إلى قبول قوله، ثم أمر بالاقتداء به، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

بل جعل ذلك من دعاء عباد الرحمن فذكر أن من دعائهم قولهم: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤]، وللآية معنيان يدلان على المقصود:

المعنى الأول: اجعلنا أئمة للمتقين يقتدون بنا، يقول شيخ الإسلام: (أي: فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم، ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى)[٣]، وقال ابن عاشور: (سألوا لأنفسهم -بعد أن وفقهم الله إلى

---

(١) أسس الحضارة الإسلامية؛ للميداني، ص (٨٠).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٧٥٠).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣ / ٩١).

الإيمـان- أن يجعلهـم قـدوة يقتـدي بهـم المتقـون) [١].

المعنى الثاني : اجعلنا نقتدي بالمتقين، قال ابن الجوزي : (اجعلنا مؤتمين بالمتقيـن مقتديـن بهـم، قالـه مجاهـد فعلـى هـذا يكـون الـكلام مـن المقلـوب، فالمعنـى: واجعـل المتقيـن لنـا إمامـا)[٢].

وحسـن الخلـق هـو جمـاع الأمـر، وهـو ثمـرة الاعتقـادات والعبـادات، كمـا قـال صلـى اللـه عليـه وسـلم : (إنمـا بعثـت لأتمـم مـكارم وفـي روايـة : صالـح - الأخـلاق)[٣]، ولذلـك نجـد أئمـة السـنة ينصـون عليـه فـي كتـب اعتقادهـم، ومـن دقيـق مـا قيـل فـي خصالـه ممـا يلتئـم مـع مـا نحـن بصـدده قـول يوسـف بـن أسـباط : (علامـة حسـن الخلـق عشـر خصـال : قلـة الخـلاف، وحسـن الإنصـاف، وتـرك طلـب العثـرات، وتحسـين مـا يبـدو مـن السـيئات، والتمـاس المعـذرة، واحتمـال الأذى، والرجـوع بالملامـة علـى النفـس، والتفـرد بمعرفـة عيـوب نفسـه دون عيـوب غيـره، وطلاقـة الوجـه للصغيـر والكبيـر، ولطـف الـكلام لمـن دونـه ولمـن فوقـه)، وسـئل سـهل عـن حسـن الخلـق فقـال : (أدنـاه احتمـال الأذى، وتـرك المكافـأة، والرحمـة للظالـم، والاسـتغفار لـه، والشـفقة عليـه)[٤] .

فـوازن هـذه الخصـال مـع قـول عائشـة عـن خلـق النبـي : (لـم يكـن فاحشـا ولا متفحشـا، ولا صخابـا فـي الأسـواق، ولا يجـزي بالسـيئة السـيئة، ولكـن يعفـو ويصفـح)[٥]، وكمـا قـال تعالـى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

***

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ١٧٠ .

(٢) زاد المسير ٣/ ٣٣٢ .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والحاكم (٤٢٢١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٥).

(٤) الإحياء : (٣/ ٧٧) .

(٥) الترمذي (٢٠١٦) .

(١٥)
(كذلك كنتم من قبل...)

آية دعوية كريمة، وقاعدة شرعية عظيمة، متى استحضرها الداعي إلى الله تعالى انحلت عنده كثير من العقد القلبية ؛ فإنك كنت في يوم من أيامك على غير بينة من أمرك، كنت غارقا في جهلك، ثم أحاطك الله تعالى برعايته، وأولاك بعنايته، وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيما .

وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الفطرية فقال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل :٧٨] .

وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء :١١٣] .

واعلم أن الأمر كله لله من قبل ومن بعد، والفضل له وحده، فكل ما أنت فيه من هداية بمحض فضله، وتذكر منة الله تعالى على رسوله في قوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾، فالهداية من الله تعالى، والثبات عليها منه، فلا معنى لاغترارك بنفسك، أو ازدرائك لغيرك .

فأنت يا من تتعالى على الجاهل والمقصر والغافل : ضع نفسك مكانه، وعامله بما كنت تحب أن تعامل به يوم جهلك، وقبل علمك، وتذكر على الدوام منة ربك : ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

وفي هذا الصدد ذكر الشاطبي ناقلا : أن (أكثر الجهالة إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق أظهروا الحق، في معرض

التحدي والإدلاء، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء؛ فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة، ورسخت في قلوبهم الاعتقادات الباطلة، وتعذر على العلماء المتلطفين محوها، مع ظهور فسادها)[١]، وهو كلام في غاية الدقة والإحكام .

هل كنت تقبل من أحد أن يسبك لخطئك، أو يحتقرك لجهلك، وينتقص من قدرك، أو يستهزئ بك، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : (وأن تأتي إلى الناس الذي تحب أن يأتوه إليك، وما كرهت لنفسك فدع الناس منه)[٢] .

فإذن لا بد من تغيير هذه المسيرة عند البعض ممن يقطر تيها وخيلاء بظاهر من القول رصفه، أو جانب من الفضائل وصفه، مع أن من أوليات مبادئ الدعوة ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن أمره بالتوحيد والتزكية فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾، ومن معانيها : لا تمنن عملك على ربك تستكثر، ولا تمنن على الخلق وتستكبر[٣] .

شأن الداعية هو حب الخير للخلق، وتمني اهتدائهم جميعا إلى الحق، لسان حاله قول الداعية الناصح والرجل الصالح الذي حكى الله تعالى قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ .

قال ابن القيم : (أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر، حتى كأنه هو الذي عثر بها، ولا يشمت به، فهو دليل على رقة قلبه وإنابته)[٤] .

قال سرّي السقطي: (منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي مرة: الحمد للّه . قيل له : وكيف ذلك ؟ قال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني واحد

---

(١) الموافقات : (٤/ ٢٦٥) .

(٢) السلسلة الصحيحة : (٣/ ٤٦٥) .

(٣) انظر في معانيه : زاد المسير لابن الجوزي : (٤/ ٣٦١) .

(٤) مدارج السالكين : (١/ ٤٣٥) .

وقال : نجا حانوتُك! فقلت: الحمد للّه! فأنا نادم من ذلك الوقت حيث أردتُ لنفسي خيراً من دون الناس)[١] .

ومن أعظم ما يثمره هذا المعنى القلبي حسن الظن بإخوانك، والتماس المعاذير مهما أمكنك ذلك .

قال عمر رضي الله عنه : (ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا)[٢].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (من علم من أخيه مروءة جميلة فلا يسمعنَّ فيه مقالات الرِّجال، ومن حَسُنت علانيته فنحن لسريرته أرجى)[٣].

وقال بكر بن عبد الله المزني : (إيَّاك من الكلام ما إن أصبتَ فيه لَم تُؤجَر، وإن أخطأت فيه أثمت، وهو سوء الظنِّ بأخيك)[٤].

وقال أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي : (إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك؛ فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك: لعلَّ لأخي عذراً لا أعلمه)[٥] .

وقال المهلب : (قد أوجب الله تعالى أن يكون ظنُّ المؤمن بالمؤمن حسنًا أبدًا، إذ يقول:

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور١٢].

فإذا جعل الله سوء الظَّن بالمؤمنين إفكًا مبينًا، فقد ألزم أن يكون حُسْن الظَّن بهم صدقًا بينًا)[٦] .

---

(١) فيض القدير : (١/ ١٢٤) .

(٢) تاريخ دمشق : (٤٤/ ٣٦٠) .

(٣) شرح البخاري لابن بطال : (٩/ ٢٦١) .

(٤) تهذيب التهذيب : (١/ ٤٨٤) .

(٥) الحلية لأبي نعيم : (٢/ ٢٨٥) .

(٦) شرح البخاري لابن بطال : (٩/ ٢٦١) .

وكان معروف الكرخي قاعدا على دجلة ببغداد فمر به صبيان في زورق يضربون بالملاهي ويشربون فقال له أصحابه : (أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء؟ ادع عليهم، فرفع يديه إلى السماء وقال : الهي وسيدي كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة . فقال له صاحبه: أنما سألناك أن تدعو عليهم ولم نقل ادع لهم، فقال : إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضركم هذا) [١].

ولكن أسجل هنا وبكل أسف أن هذه المعاني تحولت عند بعضنا إلى قول الشاعر[٢] :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا   مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به   وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

***

(١) طبقات الأولياء : (١/ ٤٧) .

(٢) هو قعنب بن أم صاحب، ينظر : المستطرف للأبشيهي ص ٩٧ .

(١٦)

لا تلازم بين الرد والتحذير ولا الخلاف والافتراق

مما أشكل على بعض الدعاة والطلاب عدم التفريق بين الرد والتحذير، فظنوا أن كل رد على خطأ يتضمن التحذير من المخطئ بإطلاق، كما ظنوا أن كل خلاف يلزم منه الافتراق، وبذلك وقعوا فيما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم من التباغض والتدابر والشقاق، حتى غدا الأمر كما قال صلى الله عليه وسلم : (فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا)[١] .

فمن كان بالأمس من الأصفياء غدا من ألد الأعداء، وفي كل يوم تشهد حربا أهلية كلامية، وتسمع تسمية لفرقة جديدة نارية، بلا قواعد ولا أصول، وتنابز بألقاب ممقوتة، ولا تزال الأيام حبلى بمسميات عديدة، قال الفضيل بن عياض: (لا تكمل مروءة الرجل حتى يسلم منه عدوه، كيف والآن لا يسلم منه صديقه) [٢].

وقد سبقت معنا الردود المساقة في القرآن على الأنبياء وهم صفوة الخلق، وردوده سبحانه على الصحابة رضي الله عنهم، ولم يلزم من ذلك جرحهم، أو التحذير منهم، وهم المصطفون الأخيار، وأنزل الله في أول سورة الممتحنة في شأن حاطب بن أبي بلتعة - رضي الله عنه - وشدّد فيها على من والى أعداء الله تعالى، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾، ولم يكن ذلك جرحاً في حاطب، فقد عذره رسول الله -صلى الله عليه وسلم ولما

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٧٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجة (٤٢)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والدارمي (٩٥) .

(٢) حلية الأولياء : (٨/ ٣٤١) .

قَالَ عُمَرُ : دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. قَالَ : « إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ »[١] .

وقد ثبت في صحيح مسلم مرفوعاً : أن حاطباً يدخل الجنّة ولا يدخل النار[٢] .

ونزل الوعيد في رفع الأصوات عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، فأشفق ثابت بن قيس –

رضي الله عنه– من ذلك، وكان جهوري الصوت، ولم يكن شيء من ذلك جرحاً في أحد من أولئك.

وهؤلاء الصحابة يرد بعضهم على بعض، ولم يحذر بعضهم من بعض، ولم يصنف بعضهم بعضا، فالرد على العالم ليس إبطالا لعلمه، فأنت مسلم بعلمه وسابقته قبلا فلا يمكن أن تبطله بعدا، إلا إذا كان حكمك الأول باطلا، فالحكم الثاني ليس بأولى من الأول، مادام لم ينحرف في أصوله .

ولذلك نجد أهل العلم على قلب رجل واحد يثني بعضهم على بعض مع الردود بينهم، والخلاف في بعض المسائل سواء الأصلية أو النازلة أو الفرعية؛ فهذا الإمام الشافعي – رحمه الله تعالى– كان محبّاً لشيخه الإمام مالك بن أنس– رحمه الله تعالى– حتى كان يقول عنه: (مالك بن أنس أستاذي، ومنه تعلمنا العلم، وإذا ذكر العلماء فمالك النّجم، وما أحد أمنّ عليّ من مالك، وعنه أخذت العلم)، وكان يقول: (جعلت مالكاً حجّة بيني وبين الله)[٣].

قال يونس بن عبد الأعلى، سمعت الشافعي يقول : (لولا مالك وابن عيينة

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٧) و (٣٠٨١) و (٣٩٨٣) و (٤٢٧٤) و (٤٨٩٠) و (٦٢٥٩) و (٦٩٣٩) ومسلم (٢٤٩٤) .

(٢) صحيح مسلم (٢٤٩٥)، بمعناه .

(٣) ترتيب المدارك : (١/ ٤١٥) .

لذهب علم الحجاز)[١] .

ومع هذا لما قدم الشافعي إلى مصر ورأى من أتباع مالك ما رأى- فقال: (قدمت مصر، ولا أعرف أن مالكاً يخالف من أحاديثه إلاّ ستة عشر حديثاً، فنظرت، فإذا هو يقول بالأصل ويدع الفرع، ويقول بالفرع ويدع الأصل)[٢] .

وكذلك ما كان بين الإمام أحمد وابن المديني ويحي بن معين : فقد قال حنبل: سمعت أبا عبد الله يقول: (كان أعلمنا بالرجال يحيى بن معين.. وأحفظنا للطوال علي).[٣]

وقال عبدالله بن الإمام أحمد : (قال أبي: كان علي بن المديني علماً في الناس في معرفة الحديث والعلل) [٤] .

ومع هذا قال سعيد بن عمرو البرذعي: سمعت الحافظ أبا زرعة الرازي: يقول: (كان أحمد بن حنبل لا يرى الكتابة عن أبي نصر التمار، ولا عن يحيى بن معين، ولا عن أحد ممن امتحن فأجاب) [٥].

قال المروذي: (سمعت رجلاً من أهل العسكر يقول لأبي عبد الله: ابن المديني يقرئك السلام، فسكت !!)[٦] .

وقد كانت للإمام الذهبي تعليقات حسان، بأسلوب غاية في الإحسان، حيث قال رحمه الله : (قلت: هذا أمر ضيق ولاحرج على من أجاب في المحنة، بل ولا على من أكره على صريح الكفر عملاً بالآية. وهذا هو الحق. وكان يحيى -رحمه الله- من أئمة السنة، فخاف من سطوة الدولة، وأجاب

---

(١) الحلية : (٩/ ٧٠) .

(٢) توالي التأسيس ص٧٦ .

(٣) السير : (١١/ ٨٧) .

(٤) السير : (١١/ ٥٤) .

(٥) السير : (١١/ ٥٦).

(٦) السير : (١١/ ٥٥) .

تقيـة) [١].

وحينمـا يسـتدل البعـض بأخطـاء العلمـاء عنـد معالجـة بعـض المواقـف : لا لتبريـر خطئـه أو خطئهـم، ولا لتصيـد أخطائهـم، ولكـن لمعرفـة أصـول أهـل العلـم فـي التعامـل مـع زلات ذوي الهيئـات مـن العلمـاء والدعـاة والفضـلاء، فـلا يسـلم أحـد مـن الخطـأ لا مـن كبـار العلمـاء، ولا أئمـة الحديـث، ولا الأئمـة الأربعـة، ولا كبـار التابعيـن، بـل ولا الصحابـة السـابقين، بـل كمـا هـو مقـرر فـي عقيـدة أهـل السـنة أن النبـي صلـى اللـه عليـه وسـلم لـم يسـلم مـن الاجتهـاد الـذي صوبـه اللـه تعالـى فيـه، كمـا فـي أسـارى بـدر، وسـورة عبـس، وسـورة التحريـم، وبذلـك تبقـى الكليـة النبويـة سـالمة مـن النقـض فـي قولـه صلـى اللـه عليـه وسـلم : (كل ابـن آدم خطـاء، وخيـر الخطائيـن التوابـون)[٢] .

***

(١) السير : (١١/ ٨٧) .

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٤٩٩)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي .

(١٧)
انتقاص القمم
سبب لخساسة الهمم

كلمـا كثـر انتقاصـك لمـن تقدمـك فـي العلـم والدعـوة وأعمـال الإحسـان وحسـن الأخـلاق لمجـرد خطـئ تصيدتـه، أو زلـل ترصدتـه : كلمـا خسـت همتـك فـي منافسـتهم، والتطلـع إلـى معالـي مـا وصلـوا إليـه مـن جلائلهـم ؛ لأن الشـيطان يزيـن لـك عملـك، ويرفعـك عنهـم درجـات بزعمـك ؛ بحجـة أنـك لـم تخطـيء هـذا الخطـأ بعينـه، فبالتالـي فـكل مـا حصلـوه لا شـيء أمـام أخطائهـم التـي توصلـت إليهـا، وكأنـي بـك محبـط لأعمالهـم بزلاتهـم، وطاعـن فـي جميـع فضائلهـم بآحـاد سـيآتهم، بـل لـو كانـوا مـن رؤوس أهـل البـدع لمـا جـاز لـك أن تتعـرض لأعمالهـم الصالحـة التـي وافقـوا فيهـا الحـق بالإبطـال أو بالانتقـاص هـذا مـع التنبـه علـى عـدم جـواز مدحهـم بإطـلاق فكيـف بأهـل السـنة الفضـلاء ممـن لهـم سـابقة فـي العلـم والدعـوة والإحسـان ؟!

ذكـر الخطيـب البغـدادي بسـنده عـن مالـك أنـه سـمع الزهـري، يقـول: سـمعت سـعيد بـن المسـيب يقـول: (ليـس مـن شـريف ولا عالـم ولا ذي سـلطان إلا وفيـه عيـب، لا بـد، ولكـن مـن النـاس مـن لا تذكـر عيوبـه، مـن كان فضلـه أكثـر مـن نقصـه وهـب نقصـه لفضلـه)[1] .

وقـال الإمـام أحمـد : (كل رجـل ثبتـت عدالتـه لـم يقبـل فيـه تجريـح أحـد حتـى يتبيـن ذلـك بأمـر لا يحتمـل غيـر جرحـه)[2] .

---

(١) الكفاية ص ٧٩ .

(٢) تهذيب التهذيب : (٧/ ٢٧٣) .

وقال ابن عبدالبر : (قد غلط فيه كثير من الناس وضلت فيه نابتة جاهلة لا تدري ما عليها في ذلك، والصحيح في هذا الباب أن من صحت عدالته، وثبتت في العلم إمامته، وبانت ثقته، وبالعلم عنايته : لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي في جرحته ببينة عادلة، يصح بها جرحته على طريق الشهادات، والعمل فيها من المشاهدة، والمعاينة لذلك بما يوجب تصديقه فيما قاله ؛ لبراءته من الغل والحسد والعداوة والمنافسة وسلامته من ذلك كله، فذلك كله يوجب قبول قوله من جهة الفقه والنظر)(١)، وقال : (فيمن صحت عدالته، وعلمت بالعلم عنايته، وسلم من الكبائر ولزم المروءة والتصاون، وكان خيره غالبا، وشره أقل عمله: فهذا لا يقبل فيه قول قائل لا برهان له به، وهذا هو الحق الذي لا يصح غيره إن شاء الله) (٢).

بل تأمل في قول ابن القيم : (هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس. إحداهما حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار. وأساءوا الظن بهم مطلقا، وهذا عدوان وإسراف. فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات، والحكم، وتعطلت معالمها.

والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم، ونقصانها. فسحبوا عليها ذيل المحاسن. وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها. واستظهروا بها

---

(١) جامع بيان العلم وفضله : (٢/ ١٠٩٣) .

(٢) المرجع السابق : (٢/ ١١١٣) .

في سلوكهم، وهؤلاء أيضا معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: - وهم أهل العدل والإنصاف - الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح. بل قبلوا ما يقبل. وردوا ما يرد)[١] .

هذه الآفة هي من أعظم العوائق أمام الازدياد في العلم، وأمام التنافس في العمل، وهي طبيعة نفسية، وتلبيسة إبليسية، يغذيها الحسد الخفي، ويضفي عليها المشروعية داعي الهوى الجلي، وصدق الصادق المصدوق حين قال : (يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه، وينسى الجذع أو الجدل في عينه معترضا)[٢].

وهي من أسباب الخذلان وعدم التوفيق، قال بكر بن عبدالله المزني: (إذا رأيتم الرجل مولعا بعيوب الناس، ناسيا لعيبه : فاعلموا أنه قد مكر به)[٣]، وقال ابن حبان : (فمن اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه : عمي قلبه، وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه ؛ فإن أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه)[٤] .

وتأمل في قول شيخ الإسلام : (لو قدر أن العالم الكثير الفتاوى أخطأ في مائة مسألة لم يكن ذلك عيبا)[٥]، فهل من مدكر !!!

وأعظم الجحود والتنكر، وأشد صور التكبر : أن يكون ذلكم الانتقاص لشيخك الذي علمك ورباك، وكان سببا في حياتك وهداك، فإن من أوليات مكارم الأخلاق أن تعرف حق من أحسن إليك، وتسعى جاهدا لرد جميله

---

(١) مدارج السالكين : (٢/ ٤٠) .

(٢) السلسلة الصحيحة : (١/ ٧٤)، رقم (٣٣) .

(٣) ذم الغيبة والنميمة لابن أبي الدنيا ص٦٠

(٤) روضة العقلاء ص ١٢٥ .

(٥) الفتاوى : (٦/ ٢٥٨) .

بيديـك ورجليـك .

فهـذا رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسـلم عـرف حـق مـن أحسـن إليـه مـع أنـه مـن المشـركين تحقيقـا لهـذا الخلـق القويـم فقـال فـي أسـارى بـدر : « لـو كان المطعـم حيـا، ثـم سـألني فـي هـؤلاء النتنـى لوهبتهـم لـه »[1] ؛ لأنـه كان قـد أجـار رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسـلم يـوم رجـع مـن الطائـف .

فكيـف إن كان شـيخك الـذي بـذل جهـده ووقتـه تصحيحـا لعقيـدك، وإصلاحـا لتعبـدك، وتفهيمـا لكتـاب ربـك، وتربيـة لـك علـى سـنة نبيـك، ثـم تسـعى بانتقاصـك فـي إماتـة مـن أحيـاك ؛ قامعـا دواخـل فطرتـك، متناسـيا مبـادئ تربيتـك :

أريد حياته ويريد موتي   معاذ الله من سفه وطيش

***

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣١٣٩) من حديث جبير بن مطعم، رضي الله عنه .

(١٨)
قدم الأهم فالأهم

لا شـك أن رحـى الزمـان تـدور متقلبـة بيـن ليـل ونهـار، وعشـي وإبـكار، تتصـرم سـاعاتها سـراعا، وتتقضـى لحظاتهـا تباعـا، ولا مجـال للإنسـان أن يحقـق عبـادة ربـه بجميـع تفاصيلهـا مـع قصـر عمـره، وعجـزه وضعفـه، وهـو مـن دقيـق معانـي قولـه تعالـى : ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، قـال مجاهـد: (لا يقضـي أحـد أبـدًا مـا افتُـرِض عليـه)[1]. فـلا زمـن للتضخـم العلمـي، ولا مجـال للتنمـر والإجهـاض الفكـري، فالوقـت أغلـى مـن أن يبـذل إلا فيمـا يرضـي اللـه العلـي .

وكل عاقـل لـو خيـر بيـن أعمـال كثيـرة، ولهـا فضلهـا، مـع تزاحـم الوقـت عـن إدراكهـا، لا شـك سـيختار أهمهـا لديـه، وأنفعهـا عليـه، فهـذه القاعـدة عقليـة قبـل أن تكـون شـرعية، وفطريـة قبـل أن تكـون نظريـة، وهـي تدخـل فـي الشـرعيات والدنيويـات، فكانـت القاعـدة محققـة فـي تنزيـل التشـريع، وكذلـك فـي بدايـة تأسـيس دولـة الإسـلام الأولـى فـي المدينـة حيـث بـدأ النبـي صلـى اللـه عليـه وسـلم بالمسـجد والتأليـف بيـن الأنصـار، ثـم بقيـة الأعمـال .

وحينمـا أرسـل النبـي صلـى اللـه عليـه وسـلم معـاذا إلـى اليمـن أوصـاه بتقديـم الأولـى مـن التوحيـد، ثـم الصـلاة، ثـم الـزكاة .

وكذلـك الشـأن فـي العلـم فـلا يمكـن أن تحيـط بجميـع العلـوم وتفاصيلهـا فالتفسـير فيـه مئـات المؤلفـات، وكل مؤلـف فـي مجلـدات، والحديـث مثـل ذلـك

---

(١) تفسير الطبري : (٢٤/ ٢٢٥) .

بتخصصاته من الكتب المسندة والرجال والجرح والتعديل والمصطلح، وقل كذلك في الفقه بمذاهبه المختلفة، ومناهجه المتنوعة، ثم كتب اللغة بفنونها من النحو والصرف والأدب والبلاغة والعروض وغيرها وما فيها من مئات المؤلفات، وعلوم الأصول والقواعد الفقهية والمقاصد والفروق ومصنفاتها الكثيرة، والعقيدة بفروعها من كتب السلف المسندة، وكتب العرض، وكتب الردود، وكتب الفرق وأصولها، ثم الشبهات التي لا تكاد تنقطع، وعلم التاريخ، وفن المنطق والجدل والمناظرة وغير ذلك من كتب تحتاج في قراءتها - فضلا عن فهما، ولا أقول التحقيق فيها إلى عمر نوح وصبر أيوب ؛ فلذلك يقول الشاعر :

وقدم الأهم إن العلم جم والعمر ضيف زار أو طيف ألم

وقل مثل ذلك في الدعوة فإنك لن تستطيع أن تسع جميع الناس بدعوتك، ولا يمكنك أن تسد جميع الثغرات بمفردك، فغير المسلمين خليط غير متجانس من عشرات الملل، وكل ملة لها تصوراتها وشبهاتها، وطريقة الدعوة التي تناسبها، ونحن لا شك مقصرون معها، ثم في الطوائف المنتسبة للإسلام هناك جملة من الفرق المنحرفة التي ينبغي تحديد طرق مواجهتا، وآلية التعامل معها، ثم في الأمراض المستعصية في الأمة ما يحتاج معه إلى جهود مضنية ومتكاتفة لمعالجتها، ثم الفتن العامة التي تعصف بسفينتها يمنة ويسرة حتى كادت تطوح بها بعيدا عن شاطئ السلامة، وهكذا في رفع مستوى الوعي العام للعوام، وتعليم أحكام الإسلام .

فمن تأمل في كل هذه القضايا الكبار وغيرها، وسعى في معاليها فهل يبقى له وقت لما دونها، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها)(١) .

---

(١) له ألفاظ انظرها في السلسلة الصحيحة : (١٣٧٨) .

كل منصف يعلم أننا وبكل أسف اشتغلنا بالسفسطات والجدليات، وفررنا من الزحف الحقيقي، ولا أقول بأن هذا هو الغالب، ولكن حسبي أنه غدا ظاهرة وإن اختلفنا في حجمها، فأصبحت الدعوة عند البعض إعلامية عبر أجندات تنافسية، قد لا يكون فيها إسهامات عملية إيمانية وسلوكية، مما قد يملأ الفضاء بالغثاء، وبالتالي يزاحم البناء .

قدم الأهم في كل شيء وتذكر المقالة الحكيمة لشيخ الإسلام : (ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر وإنما العاقل الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين، وينشد :

إن اللبيب إذا بدا من جسمه   مرضان مختلفان داوى الأخطرا). (١)

ولذا قال ابن المديني : (إذا رأيت الحدث، أول ما يكتب الحديث، يجمع حديث الغسل وحديث من كذب علي : فاكتب على قفاه : لا يفلح) (٢)، فتأمل ؛ لأنه مازال الطريق أمامه طويلا فقطعه بما لا يفيده .

وذكر ابن عبدالبر عن حمزة بن محمد الكناني : أنه خرج حديثا واحدا من نحو مائتي طريق، فأعجبه ذلك، فرأى يحيى بن معين في منامه، فذكر له ذلك، فقال له : (أخشى أن يدخل هذا تحت : ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ (٣) .

ولله در القاضي أبي بكر بن العربي حيث قال : (ولا ينبغي لحصيف يتصدى إلى تصنيف أن يعدل عن غرضين : إما أن يخترع معنى، أو يبدع وضعا ومبنى، وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد الورق، والتحلي بحلية السرق)(٤).

***

---

(١) ينظر الفتاوى : (٢٠/ ٥٣ -٦١) .

(٢) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي : (٢/ ٣٠١) .

(٣) جامع بيان العلم وفضله : (١٩٨٨) .

(٤) فتح المغيث للعراقي : (٣/ ٣٢٨) .

(١٩)
اشتغل بالمتفق عليه قبل المختلف فيه

هـذه القاعـدة عظيمـة النفـع، فبعـض النـاس لا يشـتغل إلا بالمختلـف فيـه، فـإذا جئتـه إلـى مسـائل الاتفـاق فـي التوحيـد والفقـه والتفسـير والحديـث وجدتـه عاميـا، ولـو اشـتغل بالمتفـق عليـه مـا وجـد وقتـا للتقعـر والتصـدر فـي مواطـن النـزاع، وعـرض مسـائل المفاصلـة، وكأنـه يدعـو خصمـه إلـى المنازلـة، كلنـا يتفـق علـى أن الدعـوة إلـى تصحيـح الاعتقـادات مـن أول المهمـات، وكلنـا يتفـق علـى أن الدعـوة إلـى إصـلاح العبـادات مـن أصـول الرسـالات، وكلنـا يتفـق علـى أن تكميـل مـكارم الأخـلاق هـي أس الدعـوات، ولـو سـعينا إلـى هـذه الثلاثيـة المتعانقـة لمـا وجدنـا لمسـائل الخـلاف سـبيلا، إلا مـن تعينـت عليـه مـن خـواص أهـل العلـم .

ومـن المتفـق عليـه أن مراقبـة نفسـك وإصـلاح قلبـك قبـل غيـرك هـو أصـل مـن أصـول الدعـوة، فقـد قـال صلـى اللـه عليـه وسـلم : « مثـل العالـم الـذي يعلـم النـاس الخيـر وينسـى نفسـه كمثـل السـراج يضـيء للنـاس ويحـرق نفسـه »[1]، وهـذا فـي العلـم فكيـف بغيـره ؛ لذلـك قبـل أن تتسـلط علـى نيـات غيـرك فاسـبر أغـوار قلبـك، فالعبـد الصـادق المخبـت يصعـب عليـه معرفـة نيتـه فـي عملـه فكيـف يتسـلط علـى نيـات الخلـق .

مـن المتفـق عليـه أن إحسـان الظـن مقـدم علـى إسـاءته، وأنَّ الخطـأ فـي حُسْـن الظَّـن بالمسـلم، أسـلم مـن الخطـأ بالطَّعـن فيهـم، فلـو سـكت إنسـان عـن لعـن أبـي

---

(١) صحيح الجامع : (٥٨٣١) .

جهل، أو أبي لهب، طول عمره، - لا عن اعتقاد - لم يضرَّه السُّكوت، ولو تعجل بالطَّعن في مسلم بما هو بريء عند الله تعالى منه فقد تعرض للهلاك ؛ لتعظيم الشَّرع الزَّجر عن الغيبة، مع أنَّه إخبار عما هو متحقِّق في المغتاب إلا النزر المستثنى .

قال مالك بن دينار : (إذا رأيت قساوة في قلبك، ووهنا في بدنك، وحرمانا في رزقك : فاعلم أنك تكلمت فيما لا يعنيك)[(١)] .

وقال سهل بن عبدالله : (من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق، ومن اشتغل بالمفضول حرم الورع، ومن ظن السوء حرم اليقين، ومن حرم هذه الثلاثة هلك)[(٢)] .

وقال ابن عون : (ذكر الناس داء وذكر الله دواء)، قال الذهبي : (إي والله فالعجب منا ومن جهلنا كيف ندع الدواء ونقتحم الداء ؟! ....ولكن لا يتهيأ ذلك إلا بتوفيق الله، ومن أدمن الدعاء ولازم قرع الباب فتح)[(٣)] .

وقال أبو سنان الأسدي : (إذا كان طالب العلم قبل أن يتعلم مسألة من الدين يتعلم الوقيعة في الناس متى يفلح)[(٤)] .

قال الشافعي رحمه الله :

لِسَانَكَ لا تَذْكُرْ بِهِ عَورَةَ امرئ
فَكلُّكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنُ
وَعَينكَ إنْ أَبْدَتْ إلَيكَ مَعَايِباً
فَصُنْهَا وَقُلْ يَاعَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْينُ

---

(١) سير السلف الصالحين : (٣/ ٩٣٧) .
(٢) سير أعلام النبلاء : (١٣/ ٣٣٢) .
(٣) السير : (٦/ ٣٦٩) .
(٤) رياض النفوس : (١/ ٣٨٨) .

وكل هـذا داخـل فـي قولـه صلـى اللـه عليـه وسـلم : (مـن حسـن إسـلام المـرء تركـه مـا لا يعنيـه)[١] .

***

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وابن حبان (٢٢٩) .

(٢٠)
الخلاف في الجرح والتعديل ليس خلافا في المنهج

كل من طالع كتب الأئمة في الجرح والتعديل وجد خلافات كثيرة بينهم، فبعضهم يعدل وآخر يجرح، ولم نجد أن هذا الخلاف كان سببا للخلاف بينهم في الاعتقاد أو المنهج، بل هو بالاتفاق اختلاف في تحقيق المناط، وهو من الخلاف الاجتهادي بالإجماع، ما دام الاتفاق واقعا على أصول المسائل .

قال الترمذي : (وقد اختلف الأئمة من أهل العلم في تضعيف الرجال كما اختلفوا في سوى ذلك من العلم)[١].

وقال الإمام النووي : (فقد أخطأ غير واحد بجرحهم بما لا يجرح)[٢]، قال السيوطي : (كما جرَّح النسائي أحمد بن صالح المصري بقوله: غير ثقة ولا مأمون . وهو ثقة إمام حافظ احتج به البخاري ووثَّقه الأكثرون، قال ابن الصلاح: وذلك لأنَّ عين السخط تبدي مساوئ، لها في الباطن مخارج صحيحة، تُعمي عنها بحجاب السخط، لا أنَّ ذلك يقع منهم تعمدًا للقدح مع العلم ببطلانه)[٣] .

فهذا الخلاف الذي وقع لم يحدث خصومة بينهم، ولا تفريقاً بين صفوفهم، ولا تحزباً بين أتباعهم .

فالعلماء يتفاوتون في الجرح والتعديل، وقد يوجد من بعض أهل

---

(١) العلل الصغير : (٥/ ٧٥٦) .

(٢) تقريب النووي ص ١٢٠ .

(٣) تدريب الراوي : (٢/ ٨٩٢)، مقدمة ابن الصلاح ص ٦٥٧ .

العلم توسعاً في نقد بعضهم، ومع ذلك لم يلزم منه الافتراق أو الشقاق! قال الذهبي في ترجمة الإمام علي بن الجعد : (وقد كان طائفة من المحدثين يتنطعون في من له هفوة صغيرة تخالف السنة، وإلاَّ فعلي إمام كبير حجة..)[١] . وذكر الذهبي -رحمه الله- في ترجمة أحمد بن عبد الملك الذي خرج له البخاري وغيره، وروى عنه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم؛ قال أحمد : (رأيته حافظا لحديثه، صاحب سنة ، فقيل له : أهل خراسان يسيئون الثناء عليه؟!، فقال : أهل خراسان قلّ ما يرضون عن إنسان !!، هو يغشى السلطان بسبب ضيعة له) . [٢]

فكل من عرف بسلامة الاعتقاد في الجملة، وعرف عنه الدعوة للتوحيد، والحرص على السنة، وحب العلم، وتحري الحق، وصحة الاستدلال، ثم توقف أو أخفق في مسألة خانه فهمه أو اتبع غير متبوعك بخاصة إن كان من أهل السنة: فالأصل أن لا يجرح، فضلا عن أن يقع خلاف بسبب جرحه وتعديله، وإلا تمزقت الدعوة أشلاء ؛ فإن النوازل غير متناهية، والخلاف في الأفهام والطباع سنة ماضية، فلو اختلفنا اليوم في موقف ثم انقسمنا فريقين، وجاء بعده موقف آخر فانقسمنا فريقين ؛ لا شك سنظل في انقسام على الدوام ﴿كالخلية السرطانية﴾ في فتكها بالجسد، فهذا النوع من الخلاف لا يستلزم الافتراق .

فإذا كان تنزيل النصوص على الوقائع اجتهادا يشترط فيه العلم ويعذر فيه المخالف بضوابطه : فتنزيل أقوال العلماء أولى مع كثرة الملابسات المحيطة بها، وعدم العصمة في اختيار ألفاظها، وصواب أحكامها؛ لذلك قال النسائي: (لا يترك الرجل عندي حتى يجتمع الجميع على تركه)[٣]، وهذا مذهبه، وهو

(١) سير أعلام النبلاء : (١٠/ ٤٦٦) .
(٢) سير أعلام النبلاء : (١٠/ ٢٦٢) .
(٣) النكت على ابن الصلاح : (١/ ٤٨٣) .

يدل على أن أقوال الأئمة في الجرح والتعديل محل أخذ ورد وجزر مد، كالاجتهادات الفقهية ؛ قال المنذري : (واختلاف هؤلاء المحدثين كاختلاف الفقهاء كل ذلك يقتضيه الاجتهاد، فإن الحاكم إذا شهد عنده بجرح شخص اجتهد في أن ذلك القدر مؤثر أم لا ؟ وكذلك المحدث إذا أراد الاحتجاج بحديث شخص ونقل إليه فيه جرح اجتهد فيه هل هو مؤثر أم لا ؟) [١].

***

(١) جواب أسئلة في الجرح والتعديل ص٨٣ .

(٢١)
مصائد الأجوبة وأمانة السؤال

نسي كثير من الناس أن السؤال عن مسائل العلم عبادة، لها ضابطان في قبولها، وإلا كان على السائل الوزر : أولهما الإخلاص : وهو أن يكون غرضك من السؤال التعلم، والتقرب إلى الله تعالى، لا تتبع السقطات، وجمع الملفات، وإيقاع المسؤول في مصيدة التصنيفات، أو إثبات ما تتبناه من آراء، وبز الأقران بها، والمراءاة فيها، فهذه كلها من آفات الركن الأول من أركان قبول الأعمال .

قال ابن حزم : (إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علما وأجرا، لا حضور مستغن بما عندك، طالب عثرة تشنعها، أو غريبة تشيعها، فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون في العالم أبدا) [١] .

وأما الركن الثاني : فهو المتابعة، ومنه أن تسأل بطريقة الوحي التي أدب بها المؤمنين : فلا تسأل عما يضر ولا ينفع، ولا تسأل بنفسية المستغني المتنطع، ولا تسأل فتشدد في المسألة، واحذر سؤال التعنت واللجاجة، ومحض الجدل الذي لا ينبني عليه عمل، فهذا كله داخل في عموم فحوى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾، قال الحسن : (إن شرار عباد الله الذين يجيئون بشرار المسائل يعنتون بها عباد الله) [٢] .

ومن الهدي النبوي الإرشاد إلى مسائل العمل، فلما سأل رجل النَّبِيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ صلى الله عليه

---

(١) مجموع رسائل ابن حزم ص ٤١١ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله : (٢/ ١٠٧٣) رقم (٢٠٨٣) .

وسلم: « وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟». قَالَ: لاَ شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » [(١)]، فأرشده إلى ما فيه عمل وهو الإعداد لها بدلا من السؤال عن وقتها الذي لا يفيده الآن .

وهذا المنهج هو ما كان عليه الصحابة رضي الله رعنهم، فلما سمعوا قول النبي صلى الله عليه وسلم في مدة لبث الدجال : (أربعين يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم) :لم يتشاغلوا بحقيقة ذلك الوقت، وكيفيية ذلك اليوم، وإنما سألوا عن العمل، فقالوا: (يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم) [(٢)].

لذلك قال الشاطبي : (فالصواب أن ما لا ينبني عليه عمل؛ غير مطلوب في الشرع، فإن كان ثم ما يتوقف عليه المطلوب؛ كألفاظ اللغة، وعلم النحو، والتفسير، وأشباه ذلك؛ فلا إشكال أن ما يتوقف عليه المطلوب مطلوب، إما شرعا، وإما عقلا) [(٣)]، قال الأوزاعي : (إذا أراد الله بقوم شرا ألزمهم الجدل ومنعهم العمل)[(٤)].

***

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٤٢/ ٣٦٨٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٢ - ٢٠٣٣/ ٢٦٣٩) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢١٣٧) .

(٣) الموافقات : (١/ ٦٦) .

(٤) جامع بيان العلم : (٢/ ٩٣٤) رقم (١٧٧٧) .

(٢٢)
ظاهرة الإرهاب الفكري

ظهرت في الآونة المتأخرة أنواع من التهديدات بين الدعاة : إما بالتحذير أو الإسقاط أو التشهير أو الهجر أو التبديع أو التشنيع، وأُعد لبعضهم ملفه الأسود من جميع مقالاته وكتاباته، ليخرج على حين غِرة عند تكاثر زلاته، وهذا كله أجنبي عن الساحة النبوية التي كان يسودها الرفق والستر حتى مع رؤوس المنافقين، مع بيان الشريعة وتنقيتها من عوالق المخطئين .

وهنا لَبس كبير ران على عقول بعض من لم يستطع التمييز بين هذا الموقف النبوي وبين فعل أئمة الجرح والتعديل وذكرهم للمجروحين والتحذير منهم والتشهير بهم، فالمقصود من تأليف قلوب المنافقين والإبقاء عليهم، ومن الجرح والتعديل : هو صيانة الشريعة وحفظها ونشرها .

فلذلك لا بد من إعادة النظر والتأني في طريقة جرح الدعاة وطلبة العلم بعضهم لبعض، وما يترتب على ذلك من مفاسد وصور من الظلم، وما يسببه من إرهاب الدعاة من الرأي العام، وعدم استقلالهم أمام سطوة العوام، وإسقاط هيبة دعوة الإسلام، مع تشابك وسائل الإعلام .

ومتى أمكن تسويغ المواقف، وإعذار المخالف، وتصحيح الكلام فهو أولى مع من كان الأصل فيه الاستقامة، قال شيخ الإسلام : (ومن أعظم التقصير نسبة الغلط إلى المتكلم مع إمكان تصحيح كلامه، وجريانه على أحسن أساليب كلام

الناس، ثم يعتبر أحد الموضعين المتعارضين بالغلط دون الآخر)[١] .

وقال : (وأخذ مذاهب العلماء من الإطلاقات من غير مراجعة لما فسروا به كلامهم وما تقتضيه أصولهم يجر إلى مذاهب قبيحة)[٢] .

لذلك قال في منهجه رحمه الله : (هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني، فإنه وإن تعدى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية : فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتما بالكتاب الذي أنزله الله، وجعله هدى للناس حاكما فيما اختلفوا فيه)[٣].

فالمجتمع الإيماني وصف بوصفين : ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ولكن تحول عند بعض الجاهلين إلى وصف آخر : ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾، وإلى البغي والظلم على سنن المغضوب عليهم والضالين الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾، وإلى ما حذر منه صلى الله عليه وسلم بقوله : « اللهم إني أعوذ بك من خليل ماكر عينه تراني، وقلبه يرعاني، إن رأى حسنة دفنها، وإن رأى سيئة أذاعها »[٤]، وهو ما ينافي حق الوفاء، والصدق والصفاء .

وأخوة الدين تقتضي إحسان الظن بأخيك، والتماس الأعذار له، وستر عيبه، وصون عرضه، ونصحه بنية إصلاحه، والأخذ بيده، كما صور النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة الإيمانية بقوله : « والمؤمن مرآة المؤمن، يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه »[٥].

---

(١) الفتاوى : (٣١/ ١١٤) .

(٢) الصارم المسلول ص ٢٨٧ .

(٣) مجموع الفتاوى : (٣/ ٢٤٥) .

(٤) السلسة الصحيحة : (٣١٣٧) .

(٥) رواه أبو داود (٤٩١٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٤). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود : حسن .

ولي مع هذا الحديث وقفة بلاغية شرعية لنتأمل دقائق معانيه، ونستنبط عميق خوافيه، فوجوه الشبه بين المؤمن والمرآة كثيرة ذكرتها في تأملاتي على الأمثال النبوية، وفيها تجلت جوامع الكلم، ومفاتح الحكم التي أوتيها النبي صلى الله عليه وسلم، فمن أسرار التشبيه ما يلي :-

١- أن المؤمن يُري أخاه عيوبه التي لا يمكنه أن يراها من نفسه، كما أن كثيرا من أعضاء الجسد وعيوب البدن لا يمكن رؤيتها إلا بالمرآة، فيعلمك أخوك المؤمن إذا جهلت، ويذكرك إذا نسيت وينبهك إذا غفلت، ويصوبك إذا أخطأت .

٢- والمرآة صادقة في ما تعكسه من هيئتك، وكذلك المؤمن صادق معك، لا يحمل تجاهك غلا ولا غشا، يريك حسناتك ويشكرك عليها، ويريك سيئاتك وينبهك إليها .

٣- وهو يُريه عيوبه كما هي دون تهويل أو تضخيم، فالمرآة إنما تريك ما في بدنك نفسه، دون زيادة إلا إذا كان الخلل في المرآة نفسها .

٤- أن المرآة صافية ناصعة، كصفاء قلب المؤمن في إخلاصه لنصيحة أخيه وحب الخير له، وكذلك من اجتمع فيه خلائق الإيمان، وتكاملت عنده آداب الإسلام، ثم تجوهر باطنه عن أخلاق النفس ترقى قلبه إلى ذروة الإحسان، فيصير لصفائه كالمرآة : إذا نظر إليه المؤمنون رأوا قبائح أحوالهم في صفاء حاله، وسوء آدابهم في حسن شمائله .

٥- كما أنها بالغة النعومة في ملمسها ، كنعومة ذلك الأخ في تعامله وكلامه ونصيحته .

٦- أن المرآة صامته، تريك ما في بدنك بصمت، وهكذا المؤمن الناصح الصادق ينصحك ولا يفضحك، يخافتك ويهمس في أذنك بخطئك، فلا تسمعه أذنك الأخرى .

٧- إذا ابتعدت عن المرآة زالت صورتك، وهكذا المؤمن إذا غبت عنه كتم

سرك، ولم يهتك سترك، بل تناسى عيبك، ولم يقلب في قلبه ذنبك .

٨- المرآة من خاصة الإنسان، ومن مقتنياته التي يحتفظ بها، وكذلك الأخ المؤمن، الصالح الناصح مما ينبغي أن يقتنى ويحتفظ بوده وخلته .

٩- أن المرآة من أهم وسائل الزينة، بل لا يكاد يتم التزين إلا بها، وهكذا لا يتم تزين المؤمن في حياته إلا بأخ له تتلاقح معه أوصافهما، وتتكامل أخلاقهما.

١٠- المرآة بالغة الحساسية، فهي تحتاج إلى رعاية خاصة لتحتفظ بنقائها، وتسلم من انكسارها، فكذلك في تعاملك مع أخيك المؤمن لابد من مراعاته، فلا تأتيه إلا بما تحب أن يأتيك .

١١- أنك كلما نظرت إلى المرآة لا ترى إلا نفسك، فلو اجتهدت لأن ترى جرم المرآة لرأيت نفسك، وكذلك أنت مع أخيك منشغل بنفسك، وإصلاح خللها، وإكمال نقصها عن تتبع إخفاقات أخيك، وزلاته وسقطاته .

١٢-أن المرآة لا تريك إلا الموضع الذي تحتاجه منها، فلا تتتبع المواضع الأخرى، وهكذا المؤمن مع أخيه يغضي عنه ولا يستقصي له، كما قال رجاء بن حيوة : من عاتب إخوانه على كل شيء كثر أعداؤه، وقال بشار بن برد :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا
صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فإنه
مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

١٣- أن المرآة لا تطلع إلا على الظاهر فلا سبيل لها إلى الباطن، وهكذا هذا

المؤمن يعامل أخاه بظاهره، ولا يتكلف الخوض في باطنه، ولا يطعن في نيته، فضلا عن صدقه وإيمانه .

فتلك جملة من أوجه الشبه مما جاد به الخاطر، ولو أعمل القارئ الذهن لأفاض بالمزيد، والله أعلم .

***

(٢٣)
آثار السلف بين الغلاة والجفاة

"السلف" لفظة اصطلاحية من حيث الإطلاق، وهي تعني : أصحاب القرون الثلاثة المفضلة من الصحابة والتابعين وتابعيهم كما في حديث : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »[1] .

وقد وردت زيادة للقرن الرابع حيث قال عمران: (فلا أدري: أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة)، لكن الأول المشهور، وأما الخامس فليس من قرون السلف اصطلاحا ؛ لذلك قال الناظم :

ثلاثة من القرون سلف وخامس بلا خلاف خلف
ورابع القرون فيه اختلفا هل سلف أو خلف من خلفا

فالسلف هم صفوة الأمة، ونقلة السنة، وحماة الملة، وأقوالهم أولى بالصواب من غيرهم، ولذلك تظاهرت النصوص بوجوب اتباعهم، والسير على سننهم، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

واتباع السلف لا يعني بحال توقف نمط الحياة عند تلك القرون، أو رفض كل جديد في غير التعبد الأصلي، كما أنها لا تعني التعصب لآحاد السلف،

(١) رواه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣) .

وتقديس أقوالهم والإلزام بآرائهم، فلا يحتج بأقوال السلف إلا عند إجماعهم .

والقسمة الثلاثية لأصناف الناس تجاه جميع المواقف الشرعية هي : إما هداة أو جفاة أو غلاة، وهذا تقسيم قرآني منحوت من قوله تعالى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .

فالغلاة :

هم الذين يحتجون بالقول والقولين والفعل والفعلين ويلزمون به غيرهم، مع تقريرهم النظري أنه لا حجة في قول أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وتكريرهم لقول الإمام مالك : (كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر) [١]، ففعل وقول آحاد السلف ليس حجة بالإجماع . قال الألباني رحمه الله : (الأثار السلفية إذا لم تكن متضافرة متواترة، لا ينبغي أن يؤخذ عن فرد من أفرادها، لا ينبغي أن يؤخذ من ذلك منهج...)[٢] .

فالواجب تجاه العالم هو العمل بعلمه الموافق للشرع، لا تقليد فعله ؛ قال ابن القيم: (ومذهب الرجل لا يؤخذ من فعله؛ إذ لعله فعله ناسياً أو ذاهلاً أو غير متأمل،! ولا ناظر، أو متأولاً أو ذنباً يستغفر الله منه ويتوب، أو يصر عليه وله حسنات تقاومه فلا يؤثر شيئاً، قال بعض السلف: " أضعف العلم علم الرؤية يعنى أن يقول: رأيت فلاناً يفعل كذا وكذا، إذ لعله قد فعله ساهيا " وقال إياس بن معاوية: " لا تنظر إلى عمل الفقيه، ولكن سله يصدقك)[٣] .

وأما الجفاة :

فهم الذين لا يعبؤون بالسلف، ولا يلتفتون إليهم، ويقولون : هم رجال ونحن رجال، ويتنكرون النصوص الدالة على فضلهم، ويتشدقون على الدوام بضرورة التجديد في مذهبهم، والقراءة المعاصرة للنصوص دون النظر في منهجهم، مع

---

(١) انظر مقدمة صفة صلاة النبي ﷺ للألباني : (الأصل ١/ ٢٣-٣٦) .

(٢) سلسلة الهدى والنور .

(٣) إعلام الموقعين : (٣/ ١٦٩) .

توافر الأدلة الكثيرة على ضرورة الاهتداء بهديهم .

فنصيحتي لهم هي قوله ربهم : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ .

وأما الهداة :

فهم من بدأوا بالقرآن فهما واهتداء، وبسنة النبي صلى الله عليه وسلم عملا وائتساء، ثم جعلوا آثار السلف إما استئناسا عند وضوح دلائل الوحيين، أو مرجحا عند تعارض الاحتماليين، أو حجة عند الإجماع وإن لم يرد نص صريح في الأصلين، وهو من مدارك قوله تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ .

***

(٢٤)
قولك صواب يحتمل الخطأ

هذه القاعدة الأثرية من مهمات القواعد الشرعية في المسائل الخلافية، ويدل عليها قوله صلى الله عليه وسلم : (وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا)[١]، فتأمل الحديث وقارنه بترجيحاتك واختياراتك، وبخاصة إذا كان اختيارك خلاف ما عليه جمهور الأئمة سواء السابقين أو المعاصرين، وقول جمهورهم مع عدم حجيته لذاته إلا أن له حصانة فقهية، لا ينبغي لطالب العلم أن ينتهكها إلا بسلطان علمي، وبرهان شرعي .

ومن التصورات المغلوطة عند بعض الطلاب، إغراقهم في ذمهم الكثرة، حتى في هذا الباب، استدلالا بنحو قوله ﷻ : ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ [الأنعام:١١٦]. وهذه النظرة بلا أدنى شك في غاية الجهل، فإن الجمهور السابقين في الفقه هم صفوة الأمة، وحملة السنة، وحماة الملة، وليسوا غثاء أهل الأرض، المقصودين في جميع آيات ذم الكثرة .

لا بد أن يغرس في نفوس طلاب العلم تسويغ الخلاف الاجتهادي، المبني على تنوع الأنظار تجاه المنقولات، وتفاوت المدركات، والاختلاف في حمل

(١) صحيح مسلم : (١٧٣١) .

الـدلالات، فإنـه ممـا لا ينبغـي لطالـب العلـم أن يضيـق بـكل خـلاف ذرعـا، أو يتطلـب فـي كل مسـألة جزمـا وقطعـا، فالخـلاف واقـع بيـن خاصـة الأمـة مـن الصحابـة والتابعيـن، ومـن بعدهـم مـن أئمـة الديـن، قـال يحيـى بـن سـعيد الأنصـاري:(مـا بـرح أولـو الفتـوى يختلفـون، فيحـل هـذا، ويحـرم هـذا، فـلا يـرى المحـرم أن المحـل هلـك ؛ لتحليلـه، ولا يـرى المحـل أن المحـرم هلـك ؛ لتحريمـه)[١] .

فلذلـك نجـد أن الشـيخين ابـن بـاز والألبانـي - رحمهمـا اللـه وهمـا مـن أشـهر علمـاء العصـر- قـد اختلفـا فـي كتابيهمـا فـي الحـج فـي أكثـر مـن سـبع عشـرة مسـألة، هـذا مـع صغـر الكتابيـن، وعـدم تناولهمـا لكثيـر مـن مسـائل الحـج فضـلا عـن بقيـة أبـواب الفقـه، بـل ومـع معاصرتهمـا، واتفـاق منهجهمـا فـي الاسـتدلال، ووحـدة المصـادر بينهمـا، مـع كل هـذه العوامـل المتجانسـة نجـد الاختـلاف بينهمـا بهـذه النسـبة العاليـة، فكيـف لـو جمعنـا بقيـة العلمـاء المعاصريـن، بلـه الأئمـة المتقدميـن، وفـي جميـع مسـائل الديـن ؟![٢]

إن الإعجـاب بـالآراء، والتعصـب للمقـالات بمحـض الأهـواء، هـو مـن أعظـم الأدواء، التـي حـذر منهـا خاتـم الأنبيـاء، ففـي الحديـث : (إذا رأيـت شـحا مطاعـا، وهـوى متبعـا، ودنيـا مؤثـرة، وإعجـاب كل ذي رأي برأيـه، فعليـك بخاصـة نفسـك)[٣]، ويقـول أبـو حـازم سـلمة بـن دينـار : (مـن أعجـب برأيـه ضـل، ومـن اسـتغنى بعقلـه زل) (٤).

وقـد قلـت قديمـا : (الغلـو فـي الترجيـح قنطـرة الغلـو فـي التجريـح) : فكلمـا كنـت ضيـق العطـن فـي ترجيحاتـك كثـرت تجريحاتـك، ومـن قـل علمـه كثـر إنكـاره، وجفـا لسـانه، وغلظـت أحكامـه، قـال ابـن القيـم : (فـإذا ظفـرت برجـل واحـد مـن

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر : (٢/ ٨٠) .

(٢) انظر مقدمة شرح مناسك الألباني ص ٨،٩ .

(٣) رواه الترمـذي (٣٠٥٨)، وأبـو داود (٤٣٤١)، وابـن ماجـة (٤٠١٤)، وقـال الترمـذي: حديـث حسـن غريـب، وهـو حديـث طويـل ضعفـه الألبانـي وذكـر أن لبعضـه شـواهد صحيحـة .

(٤) تاريخ الإسلام : (٢/ ٤٤٢) .

أولي العلم طالب للدليل محكم له متبع للحق حيث كان وأين كان ومع من كان : زالت الوحشة وحصلت الألفة، ولو خالفك فإنه يخالفك ويعذرك، والجاهل الظالم يخالفك بلا حجة، ويكفرك أو يبدعك بلا حجة، وذنبك رغبتك عن طريقته الوخيمة، وسيرته الذميمة، فلا تغتر بكثرة هذا الضرب، فإن الآلاف المؤلفة منهم لا يعدلون بشخص واحد من أهل العلم، والواحد من أهل العلم يعدل بملء الأرض منهم) [١].

فلذلك لازم الافتقار إلى ربك، أن يلهمك رشدك، وانطرح ببابه، ولُذ بجنابه، واستظل برحابه، وأكثر من الدعاء الذي كان يقوله نبيك صلى الله عليه وسلم في قيامه : (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)[٢]، قال ابن القيم : (كان ابن تيمية كثير الدعاء بذلك)[٣] .

وكان ابن تيمية يقول : (ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول يا معلم آدم وإبراهيم علمني)[٤].

ولكننا وللأسف نقطع متيقنين باختياراتنا، ولا نقبل فيها أدنى مراجعة، وربما جادلنا بالباطل عنها، ولم نقلب فيها إلا بطرف أعيننا سطرا أو سطرين، أو صفحة وصفحتين ؛ ولذلك نجد مساحات الجدل اتسعت في كل الساحات، وهو من شؤم الجهل والتعصب، قال صلى الله عليه وسلم : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » [٥].

---

(١) إعلام الموقعين : (٣/ ٣٠٧) .

(٢) رواه مسلم : (٧٧٠)، عن عائشة رضي الله عنها .

(٣) إعلام الموقعين : (٤/ ٢٥٧) .

(٤) العقود الدرية ص ٤٢ .

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٢ و٢٥٦)، والترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٨)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح .

ولـو رجعنـا إلـى الأمـر الأول لوجدنـا أن التصـدر فـي الإجابـات والكتابـات والمجـادلات لـم يكـن هديـا للأسـلاف، وإنمـا هـو مـوروث الأخـلاف، فعـن عمير بـن سـعيد قـال: سـألت علقمـة عـن مسـألة، فقـال: ائـت عبيـدة فاسـأله، فأتيـت عبيـدة فقـال: ائـت علقمـة، فقلـت: علقمـة أرسـلني إليـك، فقـال: ائـت مسـروقا فاسـأله، فأتيـت مسـروقا، فسـألته فقـال: ائـت علقمـة فاسـأله، فقلـت: علقمـة أرسـلني إلـى عبيـدة، وعبيـدة أرسـلني إليـك، فقـال: ائـت عبـد الرحمـن بـن أبـي ليلـى، فأتيـت عبـد الرحمـن بـن أبـي ليلـى، فسـألته فكرهـه، ثـم رجعـت إلـى علقمـة فأخبرتـه قـال: كان يقـال: (أجـرأ القـوم علـى الفتيـا أدناهـم علمـا)[١] .

وقـال عبدالرحمـن بـن أبـي ليلـى : (أدركـت عشـرين ومائـة مـن أصحـاب رسـول اللـه مـن الأنصـار مـا منهـم رجـل يسـأل عـن شـيء إلا ود أن أخـاه كفـاه الفتيـا) [٢]، وقـال بشـر الحافـي : (مـن أحـب أن يسـأل وليـس بأهـل أن يسـأل فمـا ينبغـي أن يسـأل)[٣] .

***

(١) أخلاق العلماء للآجري ص ١٠٣ .

(٢) شرح السنة للبغوي : (١/ ٣٠٥)، جامع بيان العلم وفضله : (٢٢٠١) .

(٣) جامع بيان العلم : (٢٠٦٠) .

(٢٥)
الخلاف شر

ونحـن نتحـدث عـن الدعـوة لا بـد أن نضـع نُصـب أعيننـا النصـوص المتوافـرة والقطعيـة فـي التحذيـر مـن الخـلاف، والأمـر بالوحـدة والائتـلاف، وألا تكـون آخـر الأولويـات، وأقـل المطلوبـات، فقـد قـال تعالـى : ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾، وقـول النبـي صلـى اللـه عليـه وسـلم : « لا تباغضـوا، ولا تحاسـدوا، ولا تدابـروا، ولا تقاطعـوا، وكونـوا عبـاد اللـه إخوانـاً، ولا يحـل لمسـلم أن يهجـر أخـاه فـوق ثـلاث »[1]، وقولـه كمـا سـبق : (تطاوعا ولا تختلفا) .

أي فيمـا ليـس فيـه نـص صريـح، أو مـا كان للاجتهـاد فيـه نظـر فسـيح، وهـو أكثـر مـا عليـه خلافـات حملـة السـنة اليـوم، كمـا تبيـن لـك آنفـا .

بـل آيـة الدعـوة فـي القـرآن سـبقت بالأمـر بالائتـلاف ثـم اتبعـت بالتحذيـر مـن الاختـلاف، فـي دلالـة ظاهـرة علـى ضـرورة الوحـدة والاتفـاق ونبـذ الفرقـة والشـقاق فـي تبليـغ ديـن الخـلاق، فقـال سـبحانه : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾، ثـم أمـر بالدعـوة : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ ، ثـم نهـى عـن الفرقـة: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ .

---

(١) البخاري (٦٠٦٥)، مسلم (٢٥٥٩) .

والله سبحانه وتعالى قد وضع في شرعته دعائم لتحقيق الوحدة والاجتماع والائتلاف، وجفف كل ينبوع يصب في الفرقة والاختلاف، فمن ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أمر عباده أن يحفظوا ألسنتهم ،وأن يقولوا التي هي أحسن كما قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣]، فأمر الله سبحانه وتعالى باختيار الكلمات، وانتقاء العبارات، وأن يزنها الإنسان بميزان قويم، وقسطاس مستقيم؛ فإن الشيطان ينزغ بين العباد.

وكذلك شرع الله سبحانه وتعالى الذب عن أعراض المسلمين، ورد غيبتهم، والدفاع عنهم كما قال صلى الله عليه وسلم : (من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجه النار يوم القيامة)[١].

وحذر أشد الحذر من الإيقاع بين المؤمنين فقال صلى الله عليه وسلم : (خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله، وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت)[٢]، فلا تتبع إخوانك ولا تستقصي لهم، قال الحسن : (لا تسأل عن عمل أخيك الحسن والسيء؛ فإنه من التجسس) (٣).

فلا بد أن تكون هذه النصوص مثالا يحتذى، وقواعد عامة لتحقيق الهدى .

وهذا لا يعني عدم وقوع الخلاف بين الناس، وإنما المقصود عدم الافتراق والبغي والشقاق، قال ابن القيم : (ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري

(١) رواه الترمذي (١٩٣١)- كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الذب عن عرض المسلم)، وقال: حديث حسن . وصححه الألباني، ونقل عن المنذرى تحسينه، صحيح الجامع (٦١٣٨) .

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٢٧) (١٨٠٢٧)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٢٥). وقال: رواه أحمد عن شهر عنه وبقية إسناده محتج بهم في الصحيح، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩٦): رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب وبقية رجاله رجال الصحيح، وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

(٣) روضة العقلاء ص ١٠٢ .

لا بـد منـه؛ لتفـاوت إرادتهـم وأفهامهـم وقـوى إدراكهـم، ولكـن المذمـوم بغـي بعضهـم علـى بعـض وعداوتهـم، وإلا فـإذا كان الاختـلاف علـى وجـه لا يـؤدي إلـى التبايـن والتحـزب، فـكل مـن المختلفيـن قصـده طاعـة اللـه ورسـوله، لـم يضـر ذلـك الاختـلاف؛ فإنـه أمـر لا بـد منـه فـي النشـأة الإنسـانية، ولكـن إذا كان الأصـل واحـداً، والغايـة المطلوبـة واحـدة، والطريـق المسـلوكة واحـدة، لـم يكـد يقـع اختـلاف، وإن وقـع كان اختلافـاً لا يضـر، كمـا تقـدم مـن اختـلاف الصحابـة؛ فـإن الأصـل الـذي بنـوا عليـه واحـد، وهـو كتـاب اللـه وسـنة رسـوله، والقصـد واحـد وهـو طاعـة اللـه ورسـوله، والطريـق واحـد وهـو النظـر فـي أدلـة القـرآن والسـنة، وتقديمهـا علـى كل قـول ورأي وقيـاس وذوق وسياسـة) [١].

قـال الإمـام أحمـد: (لـم يعبـر الجسـر إلـى خراسـان مثـل إسـحاق وإن كان يخالفنـا فـي أشـياء فـإن النـاس لـم يـزل يخالـف بعضهـم بعضـا)[٢].

***

(١) الصواعق المرسلة: (٢/ ٥١٩).

(٢) سير أعلام النبلاء: (١١/ ٣٧١).

(٢٦)
اتهم نفسك واعرف قدرك وتعاهد قلبك

الأصل في الإنسان ظلمه وجهله، فسوء القصد وسوء العمل آفتان من آفاته، وهما أساس جميع جناياته، كما قال سبحانه : ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾، وأرجو أن تدقق ببصيرتك قبل بصرك في قول شيخ الإسلام الدقيق، والذي هو من أسرار أهل التحقيق، ونصه : (والإنسان خلق ظلوما جهولا، فالأصل فيه عدم العلم، وميله إلى ما يهواه من الشر، فيحتاج دائما إلى علم مفصل يزول به جهله، وعدل في محبته وبغضه، ورضاه وغضبه، وفعله وتركه، وإعطائه ومنعه، وأكله وشربه، ونومه ويقظته، فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله، وعدل ينافي ظلمه، فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل، والعدل المفصل : كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم، وقد قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾، فإذا كان هذه حاله في آخر حياته، أو قريبا منها : فكيف حال غيره؟!)[1] .

وأعظم شيء من حيث سوء القصد والعمل هو النفاق، ومع ذلك خافه الصحابة على أنفسهم ؛ ففي البخاري في كتاب الإيمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر : (قال إبراهيم التيمي : " ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبا "، وقال ابن أبي مليكة: " أدركت ثلاثين من

(١) الفتاوى : (١٤/ ٣٨) .

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل"، ويذكر عن الحسن: " ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق")[١] .

فإذا خاف الصفوة المختارة من أعظم الأدواء على وجه الأرض فكيف تأمن أنت على نفسك ما هو دون ذلك من الهوى في القلب، والحسد الذي هو بريد البغي والطغيان، وتزيين الشطان لسيء الأعمال، وإساءة الظن في كل حال، والغيبة والنميمة وتتبع العورات، ونشر الشائعات، وادعاء نجاتك وهلاك كل من سواك من الدعاة، عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: « إِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ : هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ » . قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ : لاَ أَدْرِى أَهْلَكَهُمْ بِالنَّصْبِ، أَوْ أَهْلَكُهُمْ بِالرَّفْعِ [٢].

وقال صلى الله عليه وسلم : « يظهرُ هذا الدّين حتى يجاوز البحار، وحتى تُخاض بالخيل في سبيل الله، ثُمَّ يأتي أقوامٌ يقرأون القرآن، فإذا قرأوا قالوا: قد قرأنا القرآن، فمن أقرأُ منا؟ من أعلمُ منا؟!

ثم التفت إلى أصحابه، فقال: هل ترون في أولئك من خير؟

قالوا: لا. قال: فأولئك منكم، وأولئك من هذه الأمة، وأولئك هُم وقُودُ النار)[٣] .

وتأمل في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص أنه حدث عن ابن عمر رضي الله عنه : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « من سمّع الناس بعمله، سمّع الله به سامع خلقه، وصغّره وحقّره »، قال: فذرفت عينا عبد الله [٤] .

---

(١) صحيح البخاري : (١/ ١٨) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧٢) (٧٦٧١)، والبُخاري في الأدب المفرد (٧٥٩)، ومسلم (٦٧٧٦) .

(٣) السلسلة الصحيحة : (٣٢٣٠) .

(٤) مسند أحمد (٦٥٠٩)، بإسناد صحيح، كما في السلسلة الصحيحة : (٢٥٦٦) .

وقال الفضيل : (ما من أحد أحب الرئاسة إلا حسد، وبغى، وتتبع عيوب الناس، وكره أن يذكر أحد بخير) (١).

وقال مالك بن دينار : (من تعلم العلم للعمل كسره، ومن تعلمه لغير العمل زاده فخرا) (٢).

فاعرف قدرك، وتعاهد قلبك، ولا تبرئ نفسك، ولا تأخذك العزة بالإثم على من نصحك، مهما كان حاله عندك :

فاعمل بنصحي وغض الطرف عن زللي
ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

فإن وجدت معرة من ذلك فأصلحها بينك وبين ربك، ولا نتطلب منك أن تعلن توبتك، أو تتطلب صكوك غفران من غيرك، ولكن فقط اسع لإصلاح ما أفسدته، وبيان الحق الذي تبينته، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ .

إياك أن تغتر بنسبة انتسبت إليها، أو جماعة تغدو وتروح عليها، وتذكر قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾، لن ينفعك شيخ قلدته، أو داعية تبعته، أو رأس أطعته، فالله تعالى يقول : ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾، فأنت مطالب بالإيمان الذي بين جنبيك، وبالعمل الذي تكسبه بيديك، ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ ﴾، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾ .

ولهذه المعاني الإيمانية الدقيقة كان الخوف والإشفاق، وهضم النفس سمة أهل الجيل الإيماني الأول، دون هذا الاعتداد الذي نراه- وللأسف- بين بعض المنتسبين إلى الدعوة، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (لو نادى مناد من السماء أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلاً واحدًا، لخفت أن أكون هو، ولو نادى مناد أيها الناس إنكم داخلون النار إلا رجلاً

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر : (٩٧١) .
(٢) المرجع السابق : (٩٨٧) .

واحـدًا لرجـوت أن أكـون هـو) [١].

وقال عمر بن عبدالعزيز : (لا مستراح للعبد إلا تحت شجرة طوبى)[٢].

وسـئل الإمـام أحمـد، متـى الراحـة ؟ فقـال : (عنـد أول قـدم أضعهـا فـي الجنـة)[٣] .

وقـال الفضيـل بـن عيـاض رحمـه اللـه: (الخـوفُ أفضـل مـن الرَّجـاء مـا دام الرجـلُ صحيحًـا، فـإذا نـزل بـه المـوت فالرَّجـاء أفضـل) [٤].

وهـذا داخـل فـي قولـه تعالـى : ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾، وقولـه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾.

وهـذا الوجـل بعـد التوثـق بالعمـل يحمـل علـى دوام الافتقـار والانكسـار، وعـدم الاغتـرار والاسـتكبار، ومـا يعقبـه مـن كثـرة الاسـتغفار [٥].

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك .

***

(١) الحلية (تهذيبه) : (١ / ٧٣) .

(٢) الفوائد لابن القيم ص ٦٨ .

(٣) طبقات الحنابلة : (١ / ٢٩١) .

(٤) السير (تهذيبه) : (٢/ ٧٧٧) .

(٥) ومـن فـأل هـذه الكلمـات أنهـا ختمـت بالاسـتغفار، لاسـتحكام النقـص فـي الشـعار والدثـار، رجـاء أن يشـملنا اللـه تعالـى بواسـع رحمتـه، وأن يتجـاوز عـن خطئنـا بجميـل عفـوه ومغفرتـه .

فهرس المحتويات

(١) مسؤولية التغيير أمانة في أعناق الجميع ٩
(٢) الدعوة على قاعـدة العلم والرحمة ١٣
(٣) الزم غرز أهل العلم ٢٣
(٤) خص العلم قوما دون قوم ٢٧
(٥) كن تابعا لا متبوعا ٣٥
(٦) لسانك إما غانم أو سالم أو غارم ٣٩
(٧) ما خرج لن يعود ٤٥
(٨) كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع ٤٩
(٩) إياك وردود الأفعال ٥١
(١٠) ليس لك أن تأخذ موقفًا في كل فتنة ٥٥
(١١) المنهج بين الغلو والإجحاف ٥٩
(١٢) الجرح والتعديل صراع بين الورع والهوى ٦٣
(١٣) الموازنة بين النظرة المثالية والواقعية الحالية ٦٩
(١٤) لسان الحال أبلغ من لسان المقال ٧٣
(١٥) (كذلك كنتم من قبل...) ٧٧
(١٦) لا تلازم بين الرد والتحذير ولا الخلاف والافتراق ٨١
(١٧) انتقاص القمم سبب لخساسة الهمم ٨٥
(١٨) قدم الأهم فالأهم ٨٩
(١٩) اشتغل بالمتفق عليه قبل المختلف فيه ٩٣
(٢٠) الخلاف في الجرح والتعديل ليس خلافا في المنهج ٩٧
(٢١) مصائد الأجوبة وأمانة السؤال ١٠١

(٢٢) ظاهرة الإرهاب الفكري.. ١٠٣
(٢٣) آثار السلف بين الغلاة والجفاة ١٠٩
(٢٤) قولك صواب يحتمل الخطأ ١١٣
(٢٥) الخلاف شر ١١٧
(٢٦) اتهم نفسك واعرف قدرك وتعاهد قلبك.................................. ١٢١
فهرس المحتويات ١٢٥

***